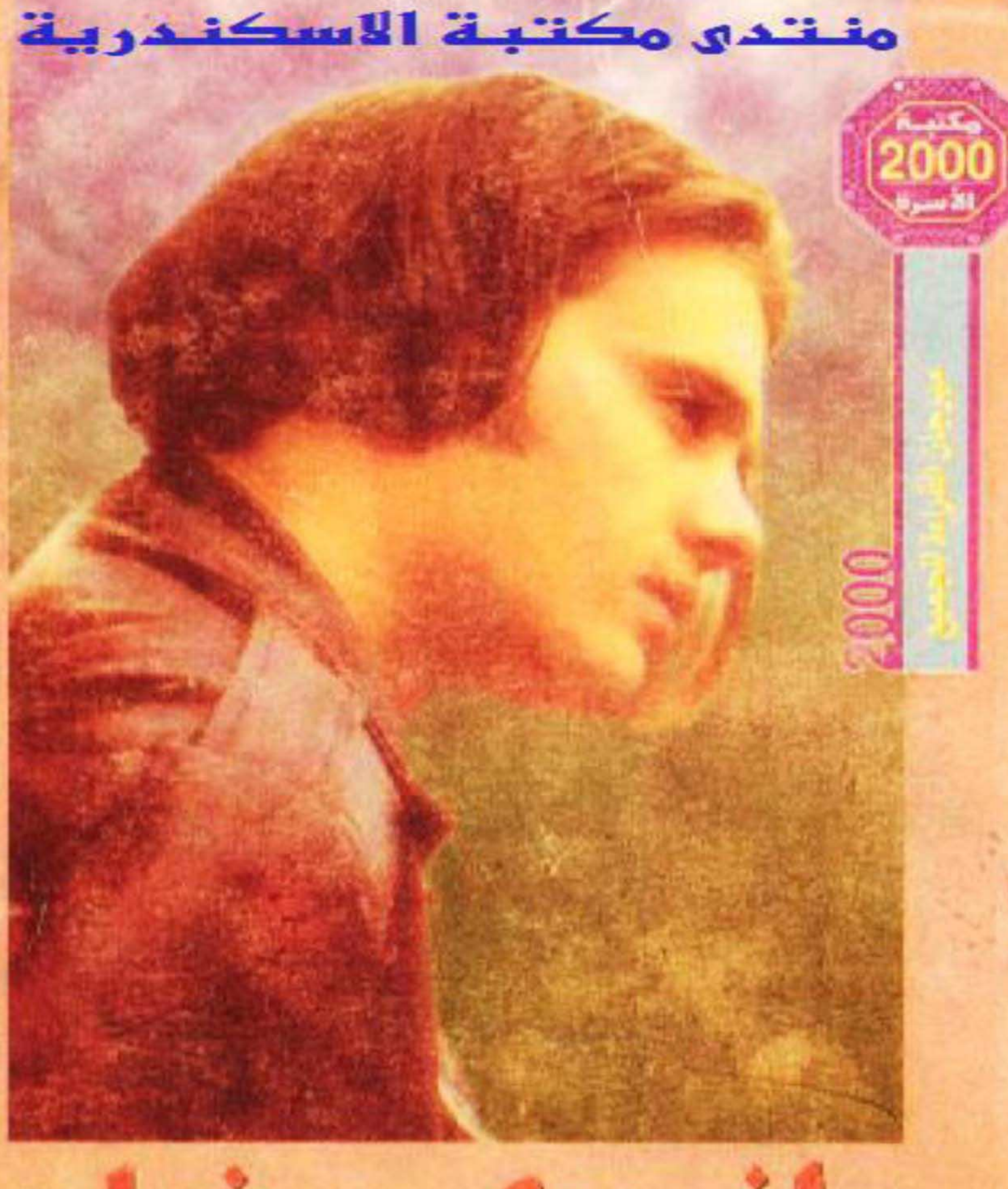


روائع الأدب العالمي للناشئين

تشارلز ديكنز

دافيد كوبرفيلد

الهيئة المصرية

دافيد كوبرفيلد

تأليف : تشـــارلز ديكنز
ترجمة : مختار السويفى
مراجعة : محمد العزب موسى

المؤلـف

تتميز جميـــع أعمال تشـــارلس ديكنز ، الأديب الانجليزى العظيم ، بحلاوة الأسلوب السهل الجذاب ، الذى يشد القارىء من بداية العمل حتى نهايته ، كما تتميز بالحبكة الروائية التى تجعل القارىء يحس بطعم « الحدوتة » · ولهذا فقد اشتهر ديكنز بأنه الأديب الذى يحبه بسطاء العالم ·· ذلك لأن جميع أعماله الأدبية معروفـة ومحبوبة لدى قراء الأدب فى جميـع انحاء العالم ، بعد أن تمت ترجمتها الى اكثر من خمسـين لغة من اللغات التى تتكلمها الشعوب المختلفة ·

ولد تشارلس ديكنز فى « لاندبورت بورتسى » فى انجلترا سنة ١٨١٢ ·· وعاش طفولة بائسة ، لأن أباه كان يعمل فى وظيفة متواضعة ويعول أسرة كبيرة العدد ·

ولهذا فقد اضطر لترك المدرسة وهو لم يزل صبيا صغيرا ·· وألحقوه بعمل شاق بأجر قليل حتى يشترك فى اعالة الأسرة ·

وكانت تجارب هذه الطفولة الشقية ذات تأثير عظيم فى نفسه ، وتركت انطباعات انسانية عميقة فى حسه ووجدانه ·

وقد كتب تشارلس ديكنز عن هذه الانطباعات والتجارب المريرة المؤلمة التى مر بها اثناء طفولته ·· فى العديد من قصصه ورواياته التى ألفها عن أبطال من الأطفال الصغار الذين عانوا الكثير من العذاب والضياع بسبب الظروف الاجتماعية الصعبة التى كانت سائدة فى انجلترا فى عصره ·

وتتجلى عظمته فى أنه بالرغم من هذا الشقاء الذى كان يعانيه فى طفولته ، فقد كان ينتهز أوقات فراغه من عمله الشاق ، وينكب على القراءة والاطلاع على الكتب ·· كما كان يحرص على التجول وحيدا فى الأحياء الفقيرة بمدينة لندن ، حيث يعيش الناس حياة بائسة ، خارجة على القانون فى أغلب الأحوال ·

وفى العديد من قصصه ورواياته ، وصف ديكنز هذه الأحياء الفقيرة بكل تفاصيلها وبكل المآسى التى كانت تدور فيها ·

وعندما وصل الى سن العشرين ، تمكنت الأسرة من الحاقه باحدى المدارس ليكمل تعليمه ··

وفى نفس الوقت كان يعمل مراسلا لاحدى الجرائد المحلية الصغيرة لقاء أجر متواضع قليل · وقد تفانى فى هذا العمل الصحفى الذى كان بمثابة تمرين له على حرفة الأدب ·

كذلك فقد أتاح له هذا العمل الصحفى أن يتأمل مستطلعا فى أحوال الناس على مختلف مستوياتهم

الاجتماعية والأخلاقية ، فخرج بالعديد من التجارب الانسانية التى وسعت من أفقه وحسه الأدبى .

وفى سن الرابعة والعشرين (سنة ١٨٣٦) أصدر تشارلس ديكنز أولى رواياته الأدبية « مذكرات بيكويك » . وقد لاقت هذه الرواية نجاحا ساحقا ، وجعلته من أكثر الأدباء الانجليز شعبية وشهرة .

ثم ازدادت شهرته فى انجلترا وخارج انجلترا عندما صدرت رواياته العظيمة الأخرى تباعا ..

ولقد حرصنا منذ بداية ظهور هذه السلسلة من «روائع الأدب العالمى للناشئين» أن نقدم لك ياعزيزى القارىء أعمال هذا الأديب العظيم الصادق الذى امتلأ قلبه بالمشاعر الانسانية ومواساة البائسين والمعذبين فى الحياة ، والذى تتفجر رواياته بأسلوب سهل بسيط ، بكل مافى هذه الحياة من ألم وأمل ..

وعلى هذا فاذا كنت تريد معرفة المزيد من المعلومات عن تاريخ حياة هذا الأديب العالمى الشهير .. وتريد فى

الوقت نفسه أن تستزيد من الاستمتاع بأعماله . فتعال معنا الى أعماله التى أصدرناها لك ضمن هذه السلسلة . وهى :

- أوليفر تويست .
- الآمال الكبرى .
- حكاية مدينتين .
- دافيد كوبرفيلد .
- أوقات عصيبة .
- مذكرات بيكويك .

وقضى تشارلس ديكنز معظم حياته فى كتابة المقالات وتأليف القصص والروايات والقاء المحاضرات وكان يدعو باستمرار فى غالبية هذه الأعمال الى ضرورة الاصلاح الاجتماعى ، والى تدعيم « المؤسسات الخيرية والصحية » التى ترعى الفقراء من الناس .

وآمن تشارلس ديكنز بأن جميع الأحوال السيئة

قابلة للاصلاح · ولهذا فقد سخر قلمه البليغ للدعوة الى تخليص المجتمع البشرى مما يحيط به من شرور وأوضاع اجتماعية غير عادلة ·

وفى سنة ١٨٧٠ مات تشارلس ديكنز بعد أن ترك للانسانية هذا الكنز الهائل من الأعمال الأدبية العظيمة ·

« المترجم »

الجزء الأول

البيت

١ ـ كيف كان مولدى

اسمى دافيد كوبرفيلد ·· وهاأنذا أكتب لكم قصة حياتى ··

ولدت فى بلاندرستون · وقد مات أبى قبل مولدى بفترة قصيرة ·

وفى احدى الأمسيات ، كانت أمى جالسة قرب نار المدفأة ، وكانت حزينة على مصيرها ومصير طفلها اليتيم البائس ·

ولمحت أمى مس بيتسى وهى تسير خارج سور

الحديقة . وكانت مس بيتسى تسير متمهلة تجاه باب البيت . وبدلا من أن تدق الجرس ، دست أنفها لتنظر الى داخل البيت من خلال النافذة .

ومس بيتسى هى عمة أبى ، ولذلك فقد كانت تعتبر بالنسبة لى عمتى الكبرى . وكان اسمها الحقيقى مس بيتسى تروتوود . وكانت تعيش مع خادم واحد فى كوخ متواضع جوار البحر . وكانت قد تزوجت من قبل ، ولكن زوجها كان رجلا سيئا ، لذلك فقد طردته .

وكانت عمتى على علاقة طيبة مع أبى .. ولكنها غضبت عليه حين تزوج أمى . وكانت عمتى تدعوها دائما باسم « اللعبة الغبية » . ولهذا السبب تشاجرت مع أبى ولم تلتق به بعد ذلك اطلاقا .

وعندما رأت أمى مس بيتسى تروتوود وهى تطل من خارج النافذة ، قامت بسرعة وفتحت باب البيت لتستقبلها .

ـ ألست أنت مسز كوبرفيلد .. ؟



مس ترتوود .

فقالت أمى :

- نعم ·· أنا هى ·· تفضلى بالدخول ·

ودخلت مس بيتسى · وجلست السيدتان معا · ثم بدأت أمى فى البكاء ، **فاستاءت مس بيتسى وقالت لأمى :**

- أوه ·· أوه ! ·· **لاتفعلى ذلك !**

ولكن أمى استمرت فى البكاء · وعندئذ وضعت مس بيتسى يديها برفق حول وجه أمى ، **وقالت لها برفق :**

- يبدو انك مازلت طفلة صغيرة ·· يجب أن تتناولى بعض الشاى ·· ما اسم البنت ·· ؟!

فقالت أمى :

- لاأعرف ان كنت حاملا فى ذكر أم انثى ··

- أقصد البنت الخادمة التى تعمل عندك ··

- آه ·· خادمتى اسمها بيجوتى ·

فقامت مس بيتسى باستدعاء الخادمة ، وطلبت منها احضار بعض الشاى ·· **ثم التفتت الى أمى وقالت لها :**

- نعود الى الحديث عن الجنين الذى مازلت تحملينه ·· انى أرغب فى أن يكون أنثى ·· ولابد أن يكون أنثى ·· وأنا أطلب منك أن تطلقى عليها اسم « بيتسى تروتوود كوبرفيلد » · وأعدك بأن أكون صديقة لها ·· وعلى فكرة ، هل تعرفين شيئا عن الطبخ وامساك الحسابات والاشراف على ادارة منزل ·· ؟!

فقالت أمى :

- لا أعرف كثيرا عن ذلك ·· ولكنى أرغب فى تعلم هذه الأشياء ·

ثم شرعت أمى فى البكاء مرة أخرى · **فقالت عمتى :**

ـ كفى عن البكاء ·· حتى لاتمرضى وحتى لاتتأثر بمرضك الطفلة التى ستلدينها ·

وعندما أحضرت الخادمة بيجوتى الشاى ·· لاحظت ان أمى متعبة ، فذهبت على الفور لاحضار الطبيب · وبمجرد وصول الطبيب ، وكان اسمه مستر شيليب ، صعد على الفور الى غرفة أمى ·

ومرت عدة ساعات الى أن ظهر الطبيب مرة أخرى نازلا على السلم · فأسرعت اليه عمتى **وسألته فى لهفة :**

ـ هاه يادكتور ·· كيف حالها ؟

فقال الطبيب :

ـ مسز كوبرفيلد فى حالة طيبة :

ـ ولكنى اسأل عن حال المولودة ··

وعندئذ قال الطبيب :

ـ آه ·· لقد ولدت ذكرا !

ولم تنطق عمتى بكلمة واحدة · ولكنها هبت واقفة واسرعت بالخروج من البيت ·· ولم تعد اليه بعد ذلك أبدا ·· وهكذا كان مولدى ·· أنا دافيد كوبرفيلد ·· !

٢ ـ وبدأت أدرك الأشياء

ومن الذكريات المبكرة التى مازلت اتذكرها وجه أمى وشعرها الجميل ٠٠ اما بيجوتى الخادمة فلا اتذكر من ملامحها سوى عينيها السوداوين وخدودها الحمراء مثل لون التفاح ٠٠ واذكر المطبخ والدجاج الكثير الذى كان يجرى فى حوش البيت ٠ وكانت الدجاجات تبدو لى فى تلك الأيام كما لو كانت اضخم منى ٠٠

ومازلت اذكر غرفة المعيشة والجلوس ، حيث كانت أمى وبيجوتى تجلسان فى كل مساء ٠٠ ومازلت أذكر

كذلك منظر البيت من الخارج ، حيث كانت تبدو نوافذ غرفة النوم ٠٠ وكذلك اذكر منظر حديقة البيت والسور المرتفع الذى كان يحيط بها ٠ وفى تلك الحديقة كانت هناك مجموعة من أشجار الفواكه ٠ ومازلت أذكر كيف كانت أمى تقوم بجمع الثمار فى سلة كانت تحملها ٠

وكنت أنا وأمى نخشى قليلا من الخادمة بيجوتى وفى احدى الأمسيات كنت جالسا مع بيجوتى فى غرفة المعيشة بجوار المدفأة ٠٠ وكنت اقرأ لها أحد الكتب ٠٠ وكنت متعبا لدرجة أنى لم أعد قادرا على الاحتفاظ بعينى مفتوحتين ٠٠ ومع ذلك فقد كنت لاحظ ابرتها وهى تدخل فى القماش وتخرج منه فى حركات رتيبة ٠ وتطلعت عندئذ الى وجهها ٠٠ وكانت تبدو فى نظرى جميلة ٠

وسألتها فجاة :

ـ بيجوتى ٠٠ هل تزوجت من قبل ٠٠ ؟

فردت بسرعة لفتت انتباهى :

– لمـــاذا يا دافيد ‥ وما الذى جعلك تفكر فى موضوع الزواج ؟

فعاودت سؤالها من جديد :

– اقصد ‥ ألم تتزوجـــى من قبل ؟ ‥ فأنت سيدة جميلة جدا ‥ أليس كذلك ؟!

ومرت فترة صـــمت قصيرة ، وعاودت بيجوتى الخياطة بابرتها **وهى تقول :**

– **أنا جميلة ؟! ‥ لا ياعزيزى الصغير !**

ولكنى تساءلت مرة أخرى :

– بيجوتى ‥ اذا كنت قد تزوجت رجلا ما ، ثم مات هذا الرجل ‥ ألا يصبح فى مقدورك أن تتزوجى رجلا آخر ‥ أليس كذلك يا بيجوتى ‥ ؟!

فقالت مترددة :

– بعض الناس يرغبون فى ذلك ‥ وبالنسبة لى فانى لا أرى ضرورة لذلك ‥ ان وجهات نظر الناس تختلف بالنسبة لهذا الموضوع ‥ !



فى طفـولتى .

- وماهى وجهة نظرك انت يابيجوتى ·· ؟

وتمهلت بيجوتى قليلا قبل أن ترد :

- وجهة نظرى هى أن تستمر فيما كنت تقرأه ··

ولاحظت عندئذ أن صوتهاكان يبدو غريبا · فنظرت اليها مستعطفا · وقلت :

- ألست غاضبة منى يابيجوتى ·· ؟

فقامت على الفور ، وقبلت جبهتى وقالت :

- لا ياعزيزى ·· ولكنى أرغب فى أن تسمعنى الكثير عن تلك الاشياء التى كنت تقرأها لى ··

وعلى هذا ، فقد واصلت القراءة ··

وبعد فترة سمعنا جرس الباب ، فذهبنا لنفتحه ·· كانت أمى تبدو فى غاية الجمال . وقد عادت الى البيت ومعها رجل كنت قد رأيته من قبل ·· انه الجنتلمان الذى أوصلها الى البيت عندما خرجت من الكنيسة يوم الأحد الماضى ·· وكان اسمه : مستر ماردستون ··

وانحنت أمى وقبلتنى · وعندئذ قال الجنتلمان :

- ياعزيزى الصغير ·· كم أنت محظوظ !

ثم وضع يده على رأسى ، فوضعت يدى على يده وأزحتها ·

فقال الرجل وهو يقبل يد أمى :

- ان حبه لك لا يدهشنى !

ولكنى أصبت بالدهشة وغضبت من ذلك · ولكن الرجل حيانى قائلا :

- تصبح على خير ياعزيزى الصغير !

فرددت تحيته ، ولكنى لم أسلم عليه يدا بيد · وعندما استدار لينصرف التفت الى ·· وكان يبدو بالنسبة لى رجلا سيىء المنظر . ولم أشعر نحوه بأى حساس من الحب ·

وذهبنا الى غرفة المعيشة · وقالت بيجوتى التى كانت تقف منتصبة فى وسط الغرفة :

ـ أرجو أن تكونى قد أمضيت أمسية طيبة يامسز كوبرفيلد ٠

فقالت أمى :

ـ شكرا لك ٠٠ كانت أمسية طيبة جدا ٠٠ !

وقالت بيجوتى :

ـ ان رؤية الغرباء أمر يبعث على السرور فى بعض الأحيان ٠

فقالت أمى بارتياح :

ـ تماما ٠٠ !

وجلست على أحد المقاعد ، وسرعان ما استغرقت فى النوم ٠ ولكنى سرعان ما تنبهت مستيقظا مـــرة أخرى ٠ ورأيت أمى وبيجوتى جالستين ٠ ويدور بينهما حديث متواصل ٠٠ وكانت عيونهما مغرورقة بالدموع ٠ **وكانت بيجوتى تقول :**

ـ **ان** مستر دافيد كوبرفيلد لا يحب هذا الرجل !

فصاحت أمى :

ـ أوه ٠٠ انك تدفعينـــى الى الجنون ٠٠ كيف تجسرين على الحديث معى بمثل هذه القسوة ؟ ٠٠ انت تعرفين تماما انى بدون أصدقاء يهتمون بى أو أهتـم بهم !

فقالت بيجوتى على الفور :

ـ هذا هو السبب فيما أحدثك فيه ٠٠ لا يجـب ان تفعلى ذلك ٠٠ لا يجب ٠٠ !

ـ وماذا أفعل اذا كان البعض يحبوننى ٠٠ انى لا استطيع أن أصده ٠٠ ولا استطيع أن أجعل من نفسى امرأة قبيحة ٠٠ !

واتجهت أمى نحوى **وهى تقول بعطف :**

ـ عزيزى دافيد ٠٠ انها تقول انى لا أحبك ٠٠ !

فصاحت بيجوتى قائلة :

ـ انى لم أقل ذلك اطلاقا !

ـ لا ٠٠ بل قلته ٠٠ قلته ٠٠ فهل أنا أم سيئة بالنسبة لك يا دافيد ؟ ٠٠ هل أنا قاسية عليك أو غير شفوقة بك ٠٠ انى أحبك يادافيد ٠٠ أليس كذلك ٠٠ ؟!

ثم بدأنا نبكي جميعا ٠٠ وذهبت الى السـرير وبدأت استغرق فى النوم وأنا أحس بأن عينى مبللتان بالدموع ٠

وفى يوم الأحد التالى ، خرجت أمى من الكنيسة ومعها الجنتلمان ، وأخذا يتمشيان سويا صوب البيت ٠ وكان الرجل يريد أن يرى زهورنا المزروعة فى حديقة البيت ، وطلب من أمى مستأذنا فى أن يقطف زهرة ٠

وعاد الرجل الى بيتنا بعد ذلك مرات ومرات ٠ وقد اعتدت على رؤيته ، ولكنى مع ذلك لم أكن أحبه ٠

وفى صـباح أحد الأيام ، كنت مع أمى فى حديقة البيت حين وصل مستر ماردستون راكبا على حصان ٠ وقال انه ينوى زيارة اصدقاء له موجودين فى مركب شراعى بمنطقة اويستوفت ٠ وارسلتنى أمى الى بيجوتى بالدور العلوى ٠٠ ومن هناك كانت بيجوتى تنظر من

النافذة ، ورأت أمى ومعها الجنتلمان وهما يسيران فى الطريق ٠٠ وغضبت بيجوتى من هذا المنظر ، فأخـذت تمشط شعرى بعنف وبطريقة المتنى ٠

وفى اليوم التالى ، أو ربمـا بعد ذلك قليلا ٠٠ طلبت منى بيجوتى أن أذهب معها لزيارة أخيها ٠٠ وكانت أمى آنئذ خارج البيت بينما كنت جالسـا مع بيجوتى فى غرفة المعيشة بجوار المدفأة ٠٠

نظرت بيجوتى الى وجهى عدة مرات . وكانت تفتح فمها كما لو كانت تريد أن تتكلم ، ولكنها كانت تغلقـه على الفور وتظل صامتة ٠ ومع ذلك فقد قالت أخيرا :

ـ مسـتر دافيد ٠٠ هل ترغب فى الذهاب معى لزيـارة أخـى فى يارماوث ٠٠ ونبقى هنـاك لمدة اسبوعين ٠٠ ؟!

فسألتها :

ـ هل أخوك رجل طيب يابيجوتى ٠٠ ؟

ـ نعم ·· انه رجل طيب ·· وفى يارماوث سترى البحر والمراكب والسفن والصيادين والرمال ·· وهناك ولد صغير اسمه هام يمكنك أن تلعب معه !

وتساءلت :

ـ ولكن ماذا ستقول أمى ·· ؟

ـ أوه ·· ستدعنا نذهب الى هناك ·· وسأطلب منها ذلك بمجرد عودتها الى البيت ·· انها ستبقى مع مسز جراير ولن تكون وحدها ··

وهكذا تم ترتيب كل شيء ·· ومرت أيام قليلة قبل أن يحل موعد مغادرتى للبيت · وركبت أنا وبيجوتى عربة صغيرة مخصصة لنقل المسافرين وامتعتهم ··

ومازلت أذكر حتى الآن كم كنت شغوفا بمغادرة البيت ·· وأحسست ساعتئذ كما لو كنت اغادره الى الأبد ··

واذكر تماما كيف غمرتنى أمى بالقبلات عند بوابة البيت ·· وبدأت أبكى ·· وبدأت أمى تبكى أيضا ··

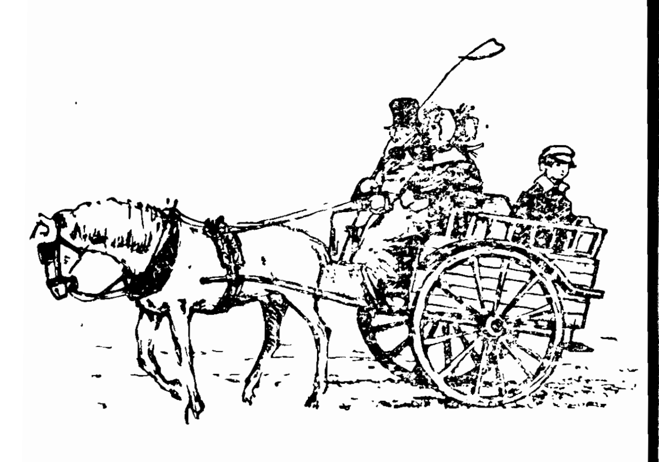
وعندما تحركت العربة خارجة من البوابة ·· جرت أمى خلفها ، وطلبت من السائق أن يتوقف لتتمكن من تقبيلى مرة أخرى ··

ونظرت خلفى ·· فرأيت انها مازالت واقفة على الطريق ·· ثم رأيت مستر ماردستون وهو قادم نحوها · وكان يبدو غاضبا عليها بسبب بكائها على فراقى ·· !

٣ ـ زيارة لمستر بيجوتى

كان الحصان الذى يجر العربة أكسل حصان فى العالم ، فقد كان يسير ببطء شديد وقد أحنى رأسه الى أسفل · وعلى طـول الطريق كانت العربة تدخل الى بعض الحوارى الضيقة لتسلم صندوقا فى أحد المنازل ، أو تسلم سريرا فى منزل آخر ·

وكانت الخادمة بيجوتى تحمل على ركبتيها ربطة بها الكثير من أنواع الطعام ·· وقد أكلنا حتى شبعنا من الأكل ، ونمنا حتى شبعنا من النوم · ولكن الرحلة



عربـة السـفر

كانت طويلة وشاقة ومجهدة ٠٠ وكم فرحت حين وصلنا الى يارماوث ٠

كانت ضواحى المدينة أراضى واسعة منبسطة ٠٠ وكان البحر يبدو واضحا من خلال صفوف البيوت المتناثرة هنا وهناك وفى كل مكان ، لدرجة يصعب معها معرفة أين تنتهى المدينة ، وأين يبدأ البحر ٠٠

وسارت العربة عبر شارع تفوح منه رائحة السمك ، ثم توقفت قرب حانة ٠ وعندئذ صاحت بيجوتى :

ـ هاهو هام ٠٠ كم أصبح كبيرا هذا الفتى ٠٠ !

وبالفعل كان فتى يافعا ضخما ، تطول قامته الى نحو ستة أقدام ، ولكن وجهه كان يبدو كوجه طفل تعلوه خصلات من شعر مجعد ٠

كان هام يقف خارج الحانة منتظرا وصولنا ٠ وسرعان ماحملنى على ظهره وحمل صندوقى تحت ذراعه ٠ وحملت بيجوتى صندوقا آخر ٠ وسرنا عبر عدة حارات أرضها مغطاة بالرمال ٠ وتجاوزنا البيوت

التى يسكنها بناؤو السفن والمراكب ٠٠ ثم البيوت التى يسكنها صناع الحبال ٠٠ ثم جميع البيوت والمحلات الأخرى التى يسكنها أو يعمل بها مختلف أنواع الصناع والحرفيين الذين يعملون فى مختلف الأعمال والصناعات المتعلقة بالسفن ٠٠ واخيرا وصلنا الى مكان واسع مفتوح ، أرضه مغطاة بالرمال ٠

وهنا قال هام :

ـ هاهو بيتنا يا دافيد ٠٠ !

ونظرت الى مختلف أركان المكان ٠٠ ولكنى لم أر بيتا على الاطلاق ٠٠ ولم يكن هناك سوى مركب كبير أسود اللون ، تطل من أعلاه انبوبة من الحديد يخرج منها الدخان ٠٠ وفيما عدا ذلك لم يكن هناك أى نوع من أنواع البيوت فى ذلك المكان ٠ فتساءلت مندهشا :

ـ هل تقصد هذا الشىء الذى يبدو كما لو كان قاربا ٠٠ ؟!

وقال هام :

- نعم ٠٠ هذا بيتنا ٠٠ !

لقد سررت كثيرا من منظر هذا البيت العجيب من الخارج ٠ فقد كان الباب يبدو مشقوقا فى جدار القارب ٠ كما شقت أيضا بضع فتحات تستعمل كنوافذ صغيرة فى كل من جانبى القارب ٠ وكان أعلاه مغطى بسقف من الخشب ٠٠ !

وازداد سرورى حين تأكدت من أن هذا البيت العجيب كان قاربا حقيقيا كثيرا ماكان يمخر عباب البحار ، ولم يقصد بناؤوه أن يستعمل كبيت فى أى وقت من الأوقات ٠٠ ومع ذلك فكم كان ظريفا أن أعيش فى قارب مرتكز على الأرض وغير طاف على سطح المياه ٠٠ !

دخلنا البيت ، وكان نظيفا جدا من الداخل ٠٠ كانت هناك منضدة وساعة كبيرة معلقة على الجدار وبجوارها بعض الرسوم والصور ٠ وكانت هناك مجموعة من المقاعد ومن الصناديق المستخدمة كمقاعد ٠

ثم فتحت بيجوتى بابا صغيرا يؤدى الى حجرة

صغيرة خصصت لنومى ٠٠ كانت حجرة لطيفة تقع بمؤخرة القارب ٠٠ حوائطها بيضاء ٠٠ وفيها مرآة محاطة باطار من أصداف القواقع ٠

وكانت رائحة السمك تملأ هواء البيت كله ٠ واخبرتنى بيجوتى أن اخاها يعمل فى صيد القواقع ٠

وقد استقبلتنا بداخل البيت سيدة فى غاية الأدب اسمها مسز جاميدج ٠٠ كما كانت هناك بنت صغيرة اسمها اميلى ٠٠ فرت هاربة واختبأت عندما رأتنى ٠

وتناولنا الطعام ٠٠ وكان سمكا ٠٠ !

ثم ظهر بعد ذلك رجل له شعر كثيف دلكن اللون يغطى رأسه وفوديه وخديه وذقنه ٠٠ وقام الرجل بتقبيل بيجوتى بحرارة ٠٠ فقد كان أخاها مستر بيجوتى ٠

كان رجلا طيبا ٠٠ وقال لى بصوت طيب :

- مرحبا بك عندنا يامستر دافيد ٠٠ انى فخور بزيارتك لنا ٠٠ وأرجو أن تكون سعيدا معها (وأشار

الى مسز جاميدج) ٠٠ ومع هـــام ٠٠ ومع اميلـــى الصغيرة !

وبعد ذلك تركنا وذهب ليغتسل ٠٠ وعندما عاد ، كان وجهه اكثر احمرارا ٠٠ مثل لون القوقعة الـذى يتحول الى اللون الأحمر حين تغمر فى الماء ٠

وفى المساء جلسنا جميعا جوار المدفأة ٠٠ وعلمت أن هام ليس ابنا لمستر بيجوتى ، ولكنه ابن شقيقه الذى مات غريقا فى البحر ٠٠ كما علمت ان اميلى الصغيرة بنت صهر مستر بيجوتى الذى مات أيضا ٠٠ أما مسز جاميدج فقد كانت أرملة لصديقه مستر جاميدج الـذى كان يعمل معه فى نفس القارب ، ولكنه غرق فى البحر منذ فترة طويلة ، ولم يعد لمسز جاميدج أى مـأوى سوى بيت صديق زوجها المستر بيجوتى ، فعاشت معه فى نفس البيت ٠

وعندما توجهت للنوم ٠٠ كنت أسمع صوت الرياح مختلطـا بصـــوت أمواج البحر ٠٠ وحلمت بأن هذا



مســتر بيجوتى .

البيت القارب أخذ يشق طريقه فى البحر الواسع ‥ وأن مستر بيجوتى كان القبطان !

وفى صباح اليوم التالى خرجت لأتمشى على الشاطىء ‥ وكانت مع اميلى · **وسألتها :**

ـ اعتقد أنك تحبين البحر ‥ ؟!

فأجابت على الفور :

ـ لا ‥ انى أخاف منه ‥ لقد رأيته وهو يحطم قاربا كبيرا الى قطع صغيرة ‥ انه جبار وقاس على رجالنا ‥ !

وظللنا نسير سويا الى أن وصلنا الى رصيف ممتد كاللسان بداخل البحر مخصص لرسو السفن والقوارب الكبيرة ‥ وظلت اميلى تسير وحدها فوق هذا اللسان حتى وصلت الى حافته النهائية عند المياه العميقة · ثم أخذت تجرى عائدة · **فقلت لها مندهشا :**

ـ لقد قلت لى منذ لحظات أنك تخافين البحر ‥ وهأنذا أراك لاتخافين منه ‥

فقالت اميلى :

ـ انى أخاف منه عندما تهب العواصف ‥ ولا أخاف منه عندما يكون هادئا ‥ مثل حالته الآن ‥

لذلك فقد ضحكت من خوفى عليها حين كانت عند حافة الرصيف عند المياه العميقة ‥ ومع ذلك فقد شعرت فى بعض الاوقات فى حياتى المستقبلة التى عشتهما فيما بعد ، انه كان من الأفضل لو انها قد سقطت فى البحر فى تلك المرة ·

لقد أحببت اميلى الصغيرة ‥ كانت مجرد طفلة ‥ وكنت مجرد ولد صغير ‥ ولكن هناك شيئا فى غاية الجمال ينبثق دائما من ذلك الحب النقى البسيط الذى يربط أحيانا بين الأطفال الصغار ·

كنا نتمشى دائما على رمال شاطىء يارماوث ‥ وكنا نقضى هناك الساعات تلو الساعات · وقد لاحظت

بيجوتى ومسز جاميدج مدى سعادتنا ·· **وتهامســـــتا علينا :**

ـ أليسا جميلين وهما يلعبان معا ·· ؟!

وحين كان مســـــتر بيجوتـــــى يرانا معا ·· أنا واميلى ·· كان يبتسم خلف غليونه الموضوع فى فمه ·

وقد لاحظت أن مسز جاميدج لم تكن سعيدة فى كل الأحيان ·· فعندما ذهب مستر بيجوتى فى احدى الامسيات ليسهر مع بعض اصدقائه ، اعتل مـــزاج مستر جاميدج **واخذت تقول :**

ـ انى وحيدة ·· وكل الأشياء ضدى ··

ثم أخذت تشكو من شدة البرد · **فقالت لها بيجوتى :**

ـ ان البرد كان شديدا طوال اليوم ·· لقد شعرنا كلنا به ··

فقالت مسز جاميدج :

ـ ولكنى أشعر بهذا البرد الشديد أكثر من كـل الناس !



وعندما تناولنا طعام العشاء فى تلك الأمسية ٠٠ كانت الأسماك صغيرة ومملوءة بالشوك ، وأغلبها كان قد احترق اثناء طهيه ٠ وجلسنا صامتين يلفنا شعور شبيه بالحزن ٠ أما مسز جاميدج فقد انخرطت فى البكاء وهى تقول :

ـ انى أشعر بالحزن أكثر منكم جميعا ٠٠ !

وعندما عاد مستر بيجوتى الى البيت فى الساعة التاسعة مساء ٠٠ كانت مسز جاميدج لم تزل تبكى وهى جالسة فى أحد أركان البيت اندهش مستر بيجوتى وسألها :

ـ ماذا فى الأمر ٠٠ ولماذا تبكين هكذا ٠٠ كونى مبتهجة ٠٠ !

فقالت :

ـ لقد ذهبت لتسهر خارج البيت ٠٠ وانى آسفة لذلك ٠٠ وأشعر بانى السبب الذى دفعك الى الخروج من بيتك ٠٠ !

فقال مستر بيجوتى ضاحكا :

ـ تقولين انك السبب الذى دفعنى للخروج ؟ ٠٠ لم يكن هناك سبب يدفعنى للخروج سوى رغبتى فى فعل ذلك ٠

فقالت مسز جاميدج وهى تذهب استعدادا للنوم :

ـ انى وحيدة ٠٠ ولا يحبنى احد ٠٠ واشعر بالأشياء اكثر مما يشعر بها الناس الآخرون ٠٠ لقد فشلت فى جعل نفسى مثلما اريد أن تكون ٠٠ وفشلت فى جعل هذا البيت مريحا كما يجب ٠٠ !

وعندئذ قالت لى بيجوتى :

ـ انها تفكر فى الرجل القديم ٠

فتساءلت مندهشا :

ـ ومن هو هذا الرجل القديم ٠٠ ؟ !

فقالت ببساطة :

ـ زوجها الذى مات !

ومر الأسبوعان ، وانتهت زيارتى ، وحلت ساعة الرحيل ·· وشعرت بالحزن لاضطرارى الى الافتراق عن اميلى الصغيرة ··

وعندما كنا نتوجه الى المكان الذى ستقوم منه عربة السفر ، سرت أنا واميلى ذراعا فى ذراع ·· وعندما تحركت العربة شعرت بفراغ فى قلبى ·· برغم أنى كنت مسرورا بأنى اصبحت فى طريق العودة الى أمى ·

وأعلنت سرورى هذا لبيجوتى ·· ولكنها لم تكن مسرورة لذلك ، بل كانت فى منتهى الحزن !

وأخيرا وصلنا الى البيت ·· ومازلت الى الآن أتذكر ذلك الجو البارد الذى كان يلفه ، وتلك السحابات الداكنة المحملة بالأمطار التى كانت تعلوه ··

وفتح الباب ·· فاندفعت جاريا صوبه والفرح يغمرنى · ولكنى فؤجئت بوجود خادمة غريبة لا أعرفها · فسألت بيجوتى :

ـ ما هذا يابيجوتى ·· ألم تعد أمى الى البيت بعد ·· ؟ !

فقالت بيجوتى متنهدة وبتردد :

ـ نعم ·· لقد عادت يا دافيد ·· ولكن انتظر ··

فقلت وأنا أشعر باضطراب شديد :

ـ ماذا حدث ؟ ·· لماذا لم تحضر أمى لتستقبلنى عند باب البيت ؟ ·· هل ماتت ؟ ·· لا ·· لايمكن ان تكون قد ماتت ·· أليس كذلك ؟ !

وقالت بيجوتى :

ـ لا ·· لم تمت ·· وكان يجب على أن أخبرك بهذا الأمر من قبل ·· لقد أصبح لك الآن أب جديد ! ·· تعال لتراه ·· !

وشحب لون وجهى ·· وهى تتوجه بى صوب غرفة المعيشة ·· وهناك تركتنى ··

وعند أحد جانبى المدفأة كانت تجلس أمى ·· وعند الجانب الآخر ، كان يجلس مستر ماردستون ·· !

٤ ـ وبدأت متاعبى

كانوا قد نقلوا حجرة نومى الى حجرة أخرى ·· وبمجرد أن رقدت على سريرى ، سحبت الغطاء فوق راسى ، واستغرقت فى البكاء حتى أخذنى النوم ··

واستيقظت على صوت يقول : هاهو !! ·· وشعرت بيد تكشف الغطاء من فوق راســـى · ·ورايت أمـــى وبيجوتى وقد جاءتا لتريانى ·· **وقالت امى :**

ـ دافيد ·· ما الحكاية ·· ؟

فقلت وانا ادير وجهى عنها :

ـ لا شيء ·· !

والتفتت امى نحو بيجوتى **وقالت لها بحدة :**

ـ انت التى افسدته ·· لقد حدثته بكلام ضدى ·· أوه يا دافيد ·· أيها الولد السيىء ·· أوه يابيجوتى ·· أيتها المراة السيئة ·· هل أواجه كل متاعب ومصاعب العالم لمجرد انى تزوجت ·· أليس من حقى أن أكون سعيدة ·· ؟!

وهنا شعرت بيد تهزنى ·· لم تكن يد أمى ولا يد بيجوتى ·· كانت يد مستر ماردستون الذى **كان يقول لأمى فى نفس الوقت :**

ـ ما هذا ياعزيزتى كلارا ؟ ·· هل نسيت ماقلته لك ؟ ·· يجب أن تكونى حازمة !!

فقالت أمى كما لو كانت تعتذر :

ـ أنا آسفة يا ادوارد ·· يصعب على أن أكون حازمة !

فهمس فى أذنها ببضع كلمات ·· وقد عرفت فيما

بعد أنه مسيطر على أمى تماما ويستطيع أن يجعلها تفعل أى شىء يرغب فيه . **وقال لأمى بحزم :**

– انزلى ياعزيزتى الى الدور الأسفل .. ودعينى أنا ودافيد لكى نتفاهم سويا ..

وعندما خرجت أمى وبيجوتى من الحجرة ، **قال لى مستر ماردستون :**

– دافيد .. هل تعلم كيف أروض حصانا .. أو كيف أجعل كلبا يطيعنى .. ؟ !

– لا .. لا أعرف !

– انى أضربه .. انى أقول لنفسى : سوف انتصر على هذا الحيوان .. سوف أضربه .. وأضرب بشدة كل جزء فى جسده .. هل تفهم ما أقوله لك .. نعم .. يبدو أنك قد فهمت .. هيا .. اغسل وجهك وانزل معى الى الدور الأسفل .. !

وعندما وصلنا الى غرفة المعيشة بالدور الأسفل ، **قال مستر ماردستون لأمى :**

– كلارا يا عزيزتى .. لن تشعرى بالمتاعب التى **يسببها لك هذا الولد مرة أخرى** .. !

وبعد أن تناولنا طعام العشاء فى ذلك اليوم ، **توقفت احدى العربات** جوار باب بيتنا .. ونزلت منها مس ماردستون .. أخت مستر ماردستون .. وكانت تحمل معها صندوقين أسودين لهما مقابض حديدية ، وتضع نقودها فى حقيبة صغيرة مصنوعة من الحديد .. لقد كانت امرأة حديدية !!

نظرت الى شذرا .. **وقالت وهى تسلم على بيدها :**

– انى لا أحب معظم الأولاد ..

وقال مستر ماردستون :

– هذا ولد عديم الأخلاق !

وفى صباح اليوم التالى تجمعنا جميعا حول مائدة الافطار .. **وسمعت مس ماردستون تقول لأمى :**

– والآن ياكلارا .. لقد جئت لمساعدتك .. انك جميلة جدا .. وليست لديك أية فكرة عما أستطيع أن

اعمله من اجلك ·· واذا اعطيتى جميع مفاتيح البيت .
فسوف استطيع أن اتدبر جميع شئون هذا البيت من الآن فصاعدا ··

وعلى الفور بدأت أمى فى البكاء ·· فقال لهـا مستر ماردستون :

– كلارا ! ·· انى مندهش لذلك ·· !

فقالت امى وهى تحاول أن تكفكف دمعها :

– انك تتحدث عن « الحزم » وعن « الانضباط » ·· ولكنك تتناقض مع نفسك ·· من المؤلم جدا أن اكون فى « بيتى » ولا ··· ···

فقاطعها على الفور :

– « بيتى » ! ·· هل قلت « بيتى » ·· ؟ !

فقالت امى مستدركة وقد بدا عليها الخوف :

– أقصد « بيتنا » ·· من المؤلم جدا أن أبدو غير قادرة على القيام بالاشـراف على ادارة بيتنا ·· او

عاجزة عن القيام بأعمال هذا البيت ·· وانى على يقين من انـى كنت ادير هذا البيت ادارة حسـنة قبل أن نتزوج ·· اسأل بيجوتى ·· !

وهنا قالت اخته مس ماردستون بحزم :

– ادوارد ·· سأرحل غدا !

فرد عليها اخوها بحزم اكثر :

– مس جين ماردستون ·· الزمى الصمت !!

والتفت الى أمى وقال لها :

– كلارا ·· عندما تزوجتك كنت أمل فى أن أمنحك القدرة على الحزم والانضباط ·· لأنك تحتاجين الى ذلك ·· وعندما تعطفت أختى جين ماردستون وجاءت لتساعدنى فى ذلك ·· فقد كنت أتوقع أن تشكريها على هذا العطف ·· أما هذا الكلام الذى تقولينه ·· فانه يسبب الى ويغير مشاعرى ··

فقالت امى وهى تبكى :



مستر ماردستون واخته

ـ أوه .. لاتقل مثل ذلك .. انى شاكرة لها .. ودعنا نصبح أصدقاء .. انى لا أستطيع أن أعيش بين ناس لايعطفون على ..

وعندئذ التفت مستر ماردستون الى وقال :

ـ دافيد .. هذا كلام لا يناسك .. غادر الغرفة فورا .. !

واغرورقت عيناى بالدموع لدرجة كنت لا استطيع معها رؤية الباب .

وهكذا تولت مس ماردستون كل شئون البيت .. واذا حدث أن نطقت أمى بكلمة أو أبدت أية فكرة أو ملاحظة ، فان مس ماردستون كانت تفتح حقيبتها الحديدية على الفور ، وتبدو كما لو كانت ستعيد المفاتيح .. وعندئذ كانت أمى تخاف وتلزم الصمت .

وكان من المفروض أن تقوم أمى باعطائى الدروس .. ولكن مستر ماردستون واخته يحضران دائما ساعة الدرس .. وينتهزان هذه الفرصة لتلقين أمى دروسا فى كيفية الحزم والانضباط ..

فى الماضى ·· أى قبل أن تتزوج أمى ·· كنت أتمتع بأوقات الدروس وأتعلمها بسهولة ·· ولكن هذه الدروس أصبحت الآن ـ بحضور مستر ماردستون وأخته ـ شيئا يبعث الخوف والألم ·· أصبحت محاكمة يومية محزنة لى ولأمى ··

وفى احدى المرات ·· تقدمت الى أمى ومعى الكتاب ·· وسلمته لها مفتوحا لكى ترى كيف حفظت الدرس ·· وبدأت فى تلاوة الدرس بسرعة قبل أن يطير من ذهنى ·· ولكنى كنت مضطربا بسبب حضور مستر ماردستون وأخته ، لذلك فقد أخطأت فى كلمة · وعندئذ نظر الى مستر ماردستون شذرا فأخطأت فى كلمتين ·· فنظرت الى اخته مس ماردستون شذرا فنسيت على الفور ست أو سبع كلمات ·· وكانت أمى تحاول أن تساعدنى ولكنها لم تجسر على فعل ذلك · **وقالت لى :**

ـ أوه يادافيد ··

وهنا تدخل مستر ماردستون قائلالها :

ـ كلارا ·· لابد أن تكونى حازمة ومنضبطة مع

الولد ·· لاتقولى له : أوه يادافيد ·· بل انظرى للموضوع هكذا : هل حفظ هذا الولد درسه أم لا ·· ؟

وقالت مس ماردستون على الفور :

ـ لا ·· لم يحفظ درسه ·

بينما قالت أمى :

ـ أخشى الا يكون قد حفظه ··

فقالت مس ماردستون :

ـ اذن اعيدى اليه الكتاب ، وقولى له أن يحفظ درسه جيدا ·

فقالت أمى بارتياح :

ـ هذا ماكنت أنوى أن أعمله بالفعل ·· تعال يادافيد ·· خذ الكتاب وحاول مرة ثانية ·· ولا تكن غبيا ·· !

وحاولت مرة اخرى ·· ولكنى فشلت فعمل مستر ماردستون حركة تدل على نفاد الصبر وكذلك فعلت أخته ·· بينما كانت أمى تحاول أن تحرك شفتيها

لتساعدني . فشخطت فيها مس ماردستون صائحة :

ـ كلارا .. !!

وعندئذ نهض مستر ماردستون من مقعده .. وأخذ الكتاب .. وضربني به على رأسي .. وألقى بي خارج الغرفة .

هكذا كنت أتلقى دروسي يوما وراء يوم .. وحتى عندما كنت أحفظ الدروس جيدا ..كان مستر ماردستون وأخته يكلفاني بمزيد من الواجبات .. وكانا لايطيقان أن يرياني غير مكلف بواجب .

وهكذا تبددت سعادتي ..وأصبحت كثير الصمت .. ومع ذلك فقد كانت سعادتي الوحيدة في الأوقات التي اقضيها متفحصا الكتب التي تركها أبي ، والتي عثرت عليها في حجرة مجاورة لحجرتي .. عثرت على « روبنسون كروزو » وعلى كتب الرحلات والعديد من الكتب الأخرى .. وكانت هذه الأوقات هي العزاء الوحيد الذي يساعدني في الهروب من شقائي وتعاستي ..

٥ ـ وضربني ..

ذات صباح ، توجهت الى غرفة المعيشة ومعي كتاب الدروس .. وكانت أمي تبدو قلقة .. وكانت مس ماردستون تبدو حازمة .. أما مستر ماردستون فكان يمسك في يده عصا غليظة .

والتفت مستر ماردستون الى أمي وقال لها :

ـ لا تهتمي كثيرا بهذا الأمر ياكلارا .. فأنا نفسي ضربت كثيرا عندما كنت في مثل سنه ..

وقالت ماردستون مؤمنة على كلامه :

ـ نعم .. هذا صحيح ..

فسالتها امى :

ـ ولكن هل تعتقدين ان الضـــرب قد اصـــلح ادوارد .. ؟!

فردت عليها فورا :

ـ وهل تعتقدين ان الضرب كان يؤلمه .. ؟!

والتفت الى مستر ماردستون وقال لى وهو يمسك بالعصا :

ـ والآن يادافيد .. يجب أن تهتم بدروسك بقدر أكثر من المعتاد !

وفى الحقيقة .. فقد أصبحت كارها لاجبارى على تلقى دروسى بتلك الطرق المرعبة .. وكانت حالتى تزداد سوءا .. واصبحت غير قادر على التذكر .. ولاحظت أن امى قد بدأت تبكى ، فنظرت اليها مس ماردستون وشخطت فيها :

ـ كلارا . !

فقالت امى كما لو كانت تبرر موقفها :

ـ يبدو أنى لست على مايرام هذا اليوم .. !

فرد عليها مستر ماردستون قائلا :

ـ كلارا .. يبدو انك لست حازمة بقدر كاف لكى تتحملى المتاعب التى يسببها لك هذا الولد ..

والتفت الى وقال :

ـ دافيد .. لابد أن تصـعد معــى الى الدور العلوى ..

وعندما كان يقودنى خارج باب الغرفة ، اندفعت أمى نحوى . ولكن مس ماردستون امسكت بها وهددتها قائلة :

ـ كلارا .. كم أنت غبية !

وسمعت أمى وهى تبكى بشدة بينما كنت اصعد الى الدور العلوى مع مستر ماردستون . وعندئذ توسلت اليه وانا ابكى :

ـ ارجوك ياسيدي ٠٠ اتوسل اليك الا تضربنى ٠٠ لقد بذلت كل جهدى فى حفظ دروسى ٠٠ ولكنى افقد القدرة على التعلم عندما تكون انت ومس ماردستون بالقرب منى !

وفجأة ، امسك براسى ووضعها تحت ذراعه ٠٠ فاضطررت الى أن اعض يده ٠٠ وعندئذ بدأ يضربنى ضربا مبرحا كما لو كان يريد ان يقتلنى ٠٠ وكانت هناك ضجة كبرى ٠٠ فكلما استمر فى ضربى ٠٠ كلما كنت اصرخ بأعلى صوتى ٠٠ وبرغم كل هذه الضجة ، سمعت اقدام امى وبيجوتى وهما تصعدان درجات السلم وكانتا تبكيان وتصرخان بشدة ٠

وعندئذ توقف مستر ماردستون عن الضرب ٠٠ وخرج من الغرفة ، واغلق على بابها ٠٠ !

وبعد فترة ، بدات اهدا ٠٠ واخذت اتصنت ، فلم أسمع فى البيت صوتا ٠٠ ونظرت الى وجهى فى المرآة ٠٠ كان احمر ومتورما فشعرت بالخوف ٠٠٠

وازداد احساسى بسوء حالتى ٠٠ واعتقدت انى قد ارتكبت شيئا فظيعا ٠٠ واخذت افكر فيما ياترى سيفعلونه بى ٠٠ هل سيرسلونى الى السجن ٠٠ ؟!

وشعرت بباب الغرفة وهو يفتح ٠٠ ودخلت مس ماردستون ٠٠ ووضعت على المائدة بعض الخبز وقليلا من اللبن ٠٠ ونظرت الى بحزم ٠٠ ثم خرجت واغلقت الباب مرة أخرى ٠٠

٦ ـ وأرسلونى الى المدرسة

واستيقظت صباح اليوم التالى نشطا وسعيدا .. ولكنى ســرعان ماتذكرت تلك التجربة المؤلمة التى عانيتها ومازلت أعانيها .. وخيل الى أنهم ينوون شنقى .. أو يفعلون بى أشياء أخرى لا أعرفها ..

وظللت سجينا فى تلك الغرفة لخمسة أيام متعاقبة . مرت كما لو كانت سنوات طويلة .. وكنت أتصنت على كل الأصوات التى تحدث فى البيت .. وقع الأقدام .. وصوت الجرس عندما يدق .. وكل الأصوات الأخرى التى تحدث فى الشارع ..

وفى اليوم الأخير ، سمعت صوتا يهمس باسمى فاقتربت من الباب **وقلت متلهفا :**

ـ أهذه أنت ياعزيزتى بيجوتى .. ؟ !

ـ نعم يادافيد .. وتكلم بصوت منخفض حتى لاتسمعنا !

وكانت تقصد بذلك مس ماردستون بالطبع .. **وسالتها بصوت منخفض :**

ـ كيف حال أمى ؟ .. هل هى غاضبة منى .. ؟!

وسمعت نهنهة بكاء بيجوتى وهى تقول :

ـ لا .. ليست غاضبة .. !

ـ وماذا سيفعلون بى ياعزيزتى بيجوتى .. هل تعرفين ؟ !

ـ نعم .. نعم .. سيرسلونك الى مدرسة قرب لندن .

ـ متى يابيجوتى .. ؟

- غدا .. !

ثم وضعت بيجوتى فمها قرب ثقب مفتاح الباب ..
وهمست بحنان :

- عـزيزى دافيد .. لقد مر وقت طويل دون أن اراك .. ولم يكن ذلك بسبب انى لا احبك .. بل على العكس .. لقد امتنعت عن زيارتك لأن ذلك افضل بالنسبة لك وبالنسبة لأمك .. فانا اخشى غضب مستر ماردستون واخته علينا جميعا .. وربما سيأتى اليوم الذى ستعرف فيه امك انى مخلصة لها وتعود من جديد لتضع رأسها فوق كتفى .. واعدك بانى سأكتب لك ياعزيزى ..

واختنقت كلماتها بعد أن بدأت فى البكـــاء ..
فقلت لها :

- شـكرا لك ياعزيزتى بيجوتـى .. وهل يمكنك أن تكتبى الى اخيك مستر بيجوتى والى اميلى الصغيرة لتطمئنيهم على حالى .. وانى لست فى حالة سيئة كما قد يظنون .. وانى ارسل تحيـــاتى وحبى لهـم

جميعا .. خصوصا اميلى الصغيرة .. أرجوك أن تكتبى لهم بهذا .. !

ووعدتنى بيجوتى بذلك ..

وفى صباح اليوم التالى جاءت مس ماردســـتون واخبرتنى بأنهم قرروا ارسالى الى المدرسة .. وعندما توجهت معها الى مائدة الافطار .. رأيت امى جالسة وقد احمرت عيناها من كثرة البكاء .. ومع ذلك فقد قالت

- يادافيد .. حاول أن تكون ولدا طيبا ..

لقد جعلوها تصدق انى ولد سيىء .. وحاولـت أن اتناول طعامى .. ولكن دموعى تساقطت على الخبز والزبد ..

وعندما وصلت العربة التى ستحملنى الى باب البيت ، وضعوا فيها صندوقى .. ولم تحضر بيجوتى لتوديعى .. وحضرت أمى ومعها مس ماردستون التى قالت لها بحزم :

ـ كلارا ·· كونى حازمة !

فقالت أمى طائعة :

ـ حاضر ياعزيزتى جين ·· وداعا يا دافيد ·· انت ذاهب لمصلحتك ·· وداعا يابنى ·· وسوف تعود الى البيت فى فترة الاجازة ·· وكن ولدا طيبا أفضل من ذلك !

وعندما اغرورقت عيناها بالدموع · **صاحت فيها مس ماردستون :**

ـ كلارا ·· !

فقالت أمى :

ـ نعم ياعزيزتى جين··ليرعاك الله يا دافيد ·· !

وهنا اخذتنى مس ماردستون وأجلستنى فى العربة ·· وبدأ الحصان الكسول يتحرك ببطء ··



واغرورقت عيناها بالدموع .

الجــزء الثانى

المدرســـة

٧ ـ فى الطريق الى المدرسة

وظللت أبكى الى أن ابتل منديلى تماما من كثرة ما ذرفته من دموع ·· وفجأة أوقف السائق العربة . وتعجبت لماذا توقف ·· ولكنى رأيت بيجوتى وهى تقفز الى داخل العربة وأخذت تقبلنى ··

وأعطتنى بعض أكياس من الورق مملوءة بالكعك ·· كما أعطتنى كيسا صغيرا به بعض النقود ·· ثم نزلت من العربة وأخذت تجرى ·· وعندئذ بدأت العربة فى التحرك من جديد ·

وبعد فترة توقفت عن البكاء ·· ووضع السائق

منديلي فوق ظهر الحصـــان ليجف ·· وفتحت كيس النقود ، فوجدت به ثلاثة شلنات لامعة براقة ، كما وجدت ورقة صغيرة مكتوب فيها:« الى دافيد ·· مع حبى ! »·

وسالت سائق العربة :

– هل سنظل هكذا حتى نصل الى هناك ·· ؟

– أين « هناك » هذه ·· ؟

– هناك ·· الى لندن ··

– الى لندن ؟ ·· ان هذا الحصان ســـيموت قطعا قبل أن يصل الى نصف الطريق الى هناك اننا سنذهب فقط الى يارماوث ·· ومن هناك ستركب عربة سفر كبيرة ستأخذك الى لندن ··

كانت هذه خطبة كبيرة وطويلة بالنسبة الى مستر باركيس ·· وهو اسم سائق العربة ··

واعطيته كعكة ·· فوضعها فى فمه وابتلعها مرة واحدة · وسألنى بعد فترة :

– هل هى اننى صنعت هذا الكعك ·· ؟

فقلت له :

– هل تقصد بيجوتى ياسيدى ؟ ·· نعم هى التى صنعته ·· وهى تقوم بكل أعمال الطبخ ··

واخذ مستر باركيس يحملق فى أذنى الحصان وهو مستغرق فى التفكير · ثم سالنى :

– هل لها زوج ·· ؟

– لا ياسيدى ·· انها غير متزوجة ·

وظل يحملق فى أذنى الحصان ، ثم قال مرة اخرى :

– وهى التى تقوم بكل أعمال الطبخ ·· ؟

– نعم ··

– اعتقد انك ستكتب لها مستقبلا ··

– نعم ساكتب لها ··

وعندئذ أدار مستر باركيس عينيه نحوى ونظر الى راجيا ·

ـ عندما تكتب اليها ٠٠ قل لهـــا ان « باركيس مستعد »(١) ٠

فتساءلت دون أن أفهم قصده :

ـ باركيس مستعد ؟ ٠٠ هل هذه كل رسالتك ٠٠ ؟!

فقال بهدوء وببطء :

ـ نعم ٠٠

ـ ولكنك يامستر باركيس ســـتمر ببيتنا غدا ٠٠ أليس من الأفضل أن تبلغها رسالتك بنفسك ٠٠ ؟

فقال بهدوء مرة اخرى :

ـ ابلغها بأن « باركيس مستعد » ٠٠ هذه هى كل رسالتى ٠

وعندما وصلنا الى يارماوث ، قالت السيدة التى تدير الحانة أن عشائى جاهز ٠ واقتادتنى الى صـــالة واسعة ٠ وأحضر الخادم عشائى وهو يقول :

---

(١) عبارة تعنى أنه يعرض عليها الزواج به ٠

ـ هذا عشاء به كمية من الطعام أكثر من حاجـة ولد صغير ٠٠ هل تدعنى أساعدك فيه ٠٠ دعنا نـرى من يأكل أكثر من الآخر ٠٠ !

وبالطبع فقد أكل الخـــادم أكثر منى ٠٠ أكل كل العشـــاء تقريبا ٠٠ وطلبت منه أن يحضر لى بعض الأوراق لأكتب رسالة الى بيجوتى ٠ وكتبت :

« عزيزتى بيجوتى ٠

وصلت بالسلامة الى يامـــاوث ٠٠ و « باركيس مستعد » ٠٠ ابلغى أمى بحبى ٠

المخلص لك والذى يحبك كثيرا ٠

دافيد ٠

ملحوظة : هو يقول انه حريص على أن تعرفى أن « باركيس مستعد » ٠

وسألنى الخادم :

ـ هل انت ذاهب الى المدرسة ٠٠ ؟

ـ نعم ..

ـ وأين تقع هذه المدرسة .. ؟

ـ بالقرب من لندن .. هذا كل ما أعرفه عنها .

ـ أوه ..انى آسف لذلك !

فقلت مندهشا :

ـ لماذا .. ؟!

ـ انها المدرسة التى يكسرون فيها ضلعين من صدر كل ولد !

ولم يسعدنى هذا الكلام طبعا ..

وبعد فترة وصلت عربة السفر الكبيرة الى باب الحانة الخارجى ، وأوصلتنى السيدة التى تدير الحانة الى العربة وهى تنظر الى بدهشة وقالت :

ـ هل التهمت كل طعام العشاء دون أن يساعدك أحد ..

ونادت على الخادم :

ـ جورج .. ان هذا الولد سـينفجر من كثرة ما أكل .. !

وتحركت عربة السفر وأخيرا وصلت الى لندن فى صباح اليوم التالى .. وهنـاك كان ينتظرنى أحد المدرسين الذين يعملون فى المدرسة . كان اسمه مستر ميل . وقلت له انى لم أتناول افطارى .

فقال :

ـ سنشترى بعض الطعام .. وسوف اذهب لزيارة سيدة عجوز .. وستتناول طعام افطارك عندها ..

ومشينا مسافة قصيرة ، الى أن وصلنا الى أحد ملاجىء الفقراء والعجزة التى يبنيها بعض الأغنياء المحسنين لايواء المعوزين من الناس . ودخلت مع مستر ميل الى داخل الملجأ . وسمعت صـوت سيدة عجوز تناديه :

ـ عزيزى شارلى !

وعرفت أنها أم مستر ميل ..

وبعد أن تناولنا افطارنا سويا،قالت السيدة العجوز لابنها :

– هل أحضرت صفارتك ياشارلى ؟

وأخرج مستر ميل صفارته وبدأ يعزف لحنا وكان أسوأ عزف سمعته فى حياتى ٠٠

وبعد أن خرجنا من الملجأ ، ركبنا عربة سفر أخرى أوصلتنا الى بلا كهيث ٠

ثم سرنا مسافة طويلة حتى وصلنا الى بيت مبنى من الطوب وله باب علقت عليه لافتة مكتوب عليها : « سالم هاوس » ٠

وفتح الباب ٠ وظهر رجل له ساق خشبية ٠

وقال له المدرس :

– هذا هو الولد الجديد ٠

كان « سالم هاوس » هذا عبارة عن مبنى مربع الشكل له مظهر حزين ٠٠ وقادنى الرجل الى أحد الفصول ٠٠ وهو مكان محزن وفارغ تماما وليس فيه أحد غيرى ٠ وكانت هناك ثلاثة صفوف طويلة من مقاعد التلاميذ ٠٠ وقصاصات كثيرة من الورق متناثرة على

الأرض ٠٠ وكانت الجدران كلها ملوثة بالحبر كما لو كان السقف قد أمطر حبرا ٠٠ وكانت رائحته كريهة لاتطاق ٠

وفى ذلك الفصل قضيت عدة أيام وحيدا ٠٠ ولم أكن أرى أحدا سوى مستر ميل ، فالأولاد لم يعودوا بعد من الأجازة ، كما أن مستر كريكل ناظر المدرسة مازال يقضى عطلته بعيدا على شاطىء البحر ٠

وكنت أتناول وجباتى مع مستر ميل فى صالة الطعام الواسعة الخالية ٠ ثم نعود الى الفصل ٠٠ وينهمك هو فى الكتابة لفترة طويلة وعندما كان ينتهى من ذلك كان يخرج صفارته ويبدأ فى عزف الألحان الحزينة ٠٠

أما أنا ، فكنت أقضى وقتى فى القراءة ٠٠ أو فى الاستماع الى تلك الألحان الحزينة ٠٠ وعندما كنت أتوجه للنوم كل مساء ، كنت أجهد نفسى بالبكاء حتى أتمكن من النوم وحدى فى تلك الحجرة الكبيرة الواسعة المملوءة بالأسرة الخالية ٠٠

٨ ـ وقابلت العديد من الناس

وأخذ الرجل ذو الساق الخشبية ينظف جميع الأركان بمبنى المدرسة · وعلمت أن ناظر المدرسة مستر كريكل سيصل فى المساء · وقبل أن يحل موعد نومى بقليل ، استدعانى الرجل ذو الساق الخشبية لمقابلة الناظر ·

كان مستر كريكل بدينا · وكان يجلس فى حجرته على مقعد ذى مساند جانبية · وكانت زوجته مسز كريكل وابنته مس كريكل موجودتين بالحجرة ·
وبمجرد دخولى قال الناظر :

ـ هاه ·· هاهو الجنتلمان الصغير الذى يعض ·· لقد أخبرنى مستر ماردستون بأنك تعض ·· أنا أعرف مستر ماردستون جيدا ·· انه رجل قوى الشخصية ·· وأنا أيضا قوى الشخصية ·· وعندما أقول انى سأفعل شيئا ما فلابد أن أفعله ·· !

وشعرت بخوف شديد ··

وفى صباح اليوم التالى ، وصل مدرس آخر اسمه مستر شارب · وكان تومى ترادلز أول العائدين من الأجازة من تلاميذ المدرسة · ثم وصل بعد ذلك أولاد آخرون ·

وعندما وصل ج · ستيرفورث ، أخذونى اليه كما لو كانوا يأخذوننى الى القاضى ·· كان جالسا تحت دروة فى فناء الملعب ·· وهو أكبر الأولاد سنا ولذلك فقد كانوا يعتبرونه رئيسهم · وكان يتمتع بذكاء خارق ومنظر حسن ·

سألنى ستيرفورث :

ـ كم معك من النقود ·· ؟

فقلت له على الفور :

ـ سبعة شلنات ·

ـ اذن اعطهم لى ·· سوف أحفظ هذه النقود من أجلك ··

وأعطيته النقود · فقال :

ـ ربما توافق على صرف بعض هذه النقود للاشتراك فى شراء وليمة سنأكلها فى حجرة النوم ··

فوافقت ··

وفى تلك الليلة ، انعقدت الوليمة فى حجرة النوم ، وجلسنا جميعا نتسامر ونتحدث فى همس وعلمت الكثير من أخبار المدرسة وأسرارها ·

علمت أن مستر كريكل ناظر المدرسة يضرب الأولاد بشدة وباستمرار ·· وانه لايعرف شيئا ·· وانه كان صاحب متجر صغير قبل أن يبدأ مشروع هذه المدرسة·· وعلمت انه لايجسر اطلاقا على ضرب ج· ستيرفورث ·

وعلمت أيضا أن المدرسين مستر شارب ومستر ميل لايحصلان الا على أجر قليل ·· كما علمت ان مسز كريكل زوجة الناظر معجبة جدا بستيرفورث ·

وأخيرا قال لى ستيرفورث :

ـ تصبح على خير يا كوبرفيلد الصغير ·· سوف أرعاك واعتنى بك !

فقلت له :

ـ شكرا لك ·· انك شديد العطف !

٩ ـ العام الدراسى الأول فى سالم هاوس

بدأت الدراسة فى اليوم التالى . ومازالت أذكر الضجة الشديدة الصاخبة التى كانت تحدث فى حجرة الدراسة ، والسكون والصمت المفاجىء عند ظهور مستر كريكل .

ويبدو أن مستر كريكل كان يجد متعته الخاصة فى ضرب الأولاد .. وكان يضرب ترادلز أكثر من كل الأولاد الآخرين .

وواصل ستيرفورث حمايته لى . وكنت أحكى له ما أعرفه من القصص فى كل مساء ، وكان يساعدنى

فى مذاكرة دروسى .. وكذلك كان مستر ميل يساعدنى فى المذاكرة ، وشعرت بأنه يحبنى ويعطف على أكثر من الأولاد الآخرين

وكنت أتألم بشدة من المعاملة السيئة التى يمارسها ستيرفورث ضد مستر ميل .. فقد كان يعامله بدون احترام ، ويفعل كل شىء يؤذى مشاعره ويجرح احساساته .. وكان يحرض الأولاد الآخرين ويشجعهم على السخرية به .

وشعرت بأنى أخطأت خطأ كبيرا حين أخبرت ستيرفورث بأن أم مستر ميل سيدة عجوز تعيش فى ملجأ للفقراء والعجزة .. فقد كنت أخشى أن يشيع ستيرفورث هذا الخبر بين الأولاد الآخرين لزيادة السخرية بمستر ميل وجرح مشاعره ..

وهكذا مرت أيام الدراسة يوما وراء يوم .. الى أن جاء يوم سأظل أذكره طول حياتى .

كان يوم سبت .. وقد أجبرنا المطر المنهمر الى

قضاء فترة بعد الظهر بداخل حجرة الدراسة · وكان مستر شارب قد انصرف ، وبقى معنا مستر ميل ·

كان الأولاد يحدثون ضجيجا وصخبا أكثر من المعتاد ·· كانوا يجرون ويتقافزون هنا وهناك ·· ويضحكون ·· ويصرخون ·· ويغنون ·· ويرقصون ·· ثم أخذوا يتحلقون حول مستر ميل ويبحلقون بأعينهم فيه ·· ويخرجون ألسنتهم له ·· ويسخرون من ملابسه الفقيرة الرثة ·· ومن حذائه البالى المثقوب ·· ومن أمه ·· !!

كان هذا شيئا فظيعا ومؤلما ·· وكان الأولاد يدورون حوله كما تدور الكلاب حول حيوان جريح · ومع ذلك ، فقد ظل مستر ميل جالسا فى سكون وقد أسند رأسه على يده محاولا القراءة فى كتاب ·· أو لعله كان يتظاهر بأنه منهمك فى القراءة ·

ولكن فجأة ، قفز مستر ميل من مقعده وهب واقفا وأخذ يصيح :

ـ اسكتوا جميعا ·· ما هذا الذى تفعلون ·· مامعناه··من المستحيل أن أتحمل ذلك··انكم تدفعوننى الى الجنون ·· كيف تجرؤون على فعل ذلك ياأولاد ؟!

وألقى بالكتاب بعنف فوق مكتبه ··

وحل الصمت عندما توقف بعض الأولاد عن الاستمرار فى تلك السخرية المريرة ·· ولكن ستيرفورث وقف فى آخر الفصل وأخذ يصفر · فقال مستر ميل :

ـ اسكت يا ستيرفورث !

ولكن ستيرفورث قال :

ـ أسكت أنت !

ـ اجلس !

ـ اجلس أنت !!

وضحك الكثير من الأولاد ، وشحب لون وجه مستر ميل وهو يقول :

ـ لقد رأيتك وانت تحرض الأولاد ضدى وتخثهم على السخرية بى ·· انك الولد المفضل لدى الناظر ·· وانت تستغل هذا المركز لتسخر وتشتم وتسب سيدا مثلى ··

فقال ستيرفورث على الفور :

ـ سيدا ؟! ·· هل تظن نفسك سيدا ؟! ·· انك مجرد شحاذ !!

وخيل لى أن ستيرفورث كان ينوى ضرب مستر ميل ·· أو أن مستر ميل كان ينوى ضرب ستيرفورث ·· وفجأة دخل مستر كريكل الى الحجرة وصاح :

ـ ماهذا الذى يحدث ·· ؟

فقال ستيرفورث :

ـ كان يقول انى الولد المفضل لدى الناظر ··

وقال مستر ميل :

ـ انه يستغل مركزه هذا ويسبنى ··

فقال ستيرفورث :

ـ لقد وصفته بأنه شحاذ ·· وهو بالفعل شحاذ ·· وابن شحاذة ·· ان أمه تعيش فى ملجأ للفقراء والعجزة !

ونظر مستر ميل نحوى ·· وأسند يده على كتفى ··

وهنا قال مستر كريكل :

ـ والآن يامستر ميل ·· اذا سمحت ·· ان عليك أن تثبت لنا جميعا أن ما قاله ستيرفورث غير صحيح ·

فقال مستر ميل بانكسار :

ـ لا ·· انه على صواب ·· لقد قال الحقيقة !

وعندئذ قال مستر كريكل قراره :

ـ أعتقد انك اخطأت الطريق عندما جئت للعمل فى مدرستنا ·· كان يجب أن تعمل فى مدرسة للشحاذين ·· أنت مفصول ·· وعليك أن تغادر المدرسة !

فقال مستر ميل وهو ينصرف :

– ستيرفورث ·· اتمنى أن ياتى يوم تندم فيه وتحس بالعار مما فعلته معى فى هذا اليوم !

وجمع مستر ميل كتبه وصفارته وخرج ··

وهنا قال ترادلز لستيرفورث :

– أنت الذى شتمته ·· وتسببت أيضا فى فصله من العمل !

ومع ذلك فقد كان ستيرفورث محل اعجاب معظم الأولاد ·

وفى ظهر أحد الأيام ، اخبرونى بان زوارا جاءوا ويريدون مقابلتى وفؤجئت بوجود مستر بيجوتى وهام ، وقد جاءا لزيارتى · **وقال مستر بيجوتى عندما رآنى :**

– لقد نضجت واصبحت كبيرا ··

وسالته :

– كيف حال أمى ·· وكيف حال اميلى الصغيرة ومسز جاميدج ·· ؟!

– هم جميعا بخير وفى أحسن حال ·· لقد أحضرت لك بعض القواقع والمحار ··

وعندما دخل ستيرفورث الى الحجرة قلت له :

– تعال لأعرفك با صدقائى ·· هذان صديقان من يارماوث ويعملان فى القوارب ·

فقال ستيرفورث :

– انى سعيد برؤيتكما ·

وقلت :

– هل يمكن أن أصحب ستيرفورث معى عند زيارتكم فى يارماوث لكى يرى بيتكم ·· انه بيت مصنوع من قارب كبير ياستيرفورث !

فقال مستر بيجوتى :

ـ أن بيتى ليس فرجة .. ولكنى أرحب بكمـــا بكل سرور فى هذا البيت ..

وهكذا مرت أيام الدراسة .. كل يوم منها كان يشبه ماســـبقه وما يليه من أيام .. وانتهى العـــام الدراسى أخيرا ..

ومازلت الى الآن أذكر رحلتى الى يارماوث فى عربة السفر ..

١٠ ـ أيـــام الأجـازة

ومن يارماوث ، ركبت عربة السفر الصغيرة التى يقودها مستر باركيس · **وقلت له :**

ـ تبدو فى حالة جيدة يا مستر باركيس .. لقـد ارسلت رسالتك ·

فقال بهدوء :

ـ ولكنى لم اســـتلم حتى الآن ردا · ومازلت انتظر ·

فسألته :

ـ وهل حدثتها فى ذلك .. ؟

- لا ٠٠ وعليك أن تحادثها انت فى هذا الموضوع ٠٠ قل لها : **بيجوتى** ٠٠ باركيس مازال ينتظر ردك ٠٠ فاذا سألتك ردى على ماذا فقل لها ان « باركيس مستعد » !

ثم سألنى بعد لحظة :

- قل لى ٠٠ ماهو اسمها الأول ؟

فقلت له :

- كلارا ٠٠ اسمها كلارا بيجوتى

وكتب مستر باركيس هذا الاسم على أحد جانبى العربة ٠

وعندما وصلنا الى البيت ٠ توقفت العربة أمام البوابة الخارجية ، وانزل مستر باركيس صندوق حاجياتى وتركنى ٠٠ وسرت تجاه الباب ، واتجهت مسرعا نحو غرفة المعيشة ٠٠ وهناك رأيت أمى جالسة ، وتحمل على ذراعيها طفلا رضيعا ٠٠ !

ناديت عليها ، فهبت واقفة ، واتجهت نحوى ، **وقبلتنى وهى تقول :**

- هذا اخوك يادافيد ٠٠ ياولدى العزيز ٠٠ ياولدى المسكين !

وجاءت بيجوتى مسرعة واحتضنتنى ٠٠ وكان مستر ماردستون وأخته مس ماردستون خارج البيت ٠٠ لذلك فقد جلسنا نحن الثلاثة نتناول عشاءنا جوار المدفأة ٠ وعندما أخبرت بيجوتى بما قاله مستر باركيس ، أخذت تضحك ٠٠ **وهنا تساءلت أمى :**

- عما تتحدثان ٠٠ ؟

فقالت بيجوتى :

- عن رجل غبى يريد أن يتزوجنى !

وقالت أمى :

- سيكون هذا زواجا مناسبا ٠

وقالت بيجوتى :

ـ لا ·· لن أتزوجه حتى ولو كان مصنوعا كله من الذهب الخالص ·· قل له يادافيد : انك لم تتكلم معها من قبل ·· وقل له انه اذا حاول أن يكلمنى فسوف أصفعه على وجهه !

وعندما انتهينا من تناول العشاء ، جلسنا قرب نار المدفأة · **وقالت أمى متسائلة :**

ـ بيجوتى ·· هل حقا تريدين أن تتزوجى ·· ؟!

ـ أنا ؟ ·· أنا لن أتزوج اطلاقا ··

ـ لا تتركينى يابيجوتى ·· وابقى جوارى فأنا بحاجة اليك ·· انى أشعر بقرب النهاية ··

ـ أتركك ؟ ·· هل هذا معقول ·· سأبقى معك الى أن أصبح سيدة عجوزا لا أصلح لشىء ··

وأخذت أحكى لهما مارأيته وسمعته من حكايات المدرسة ·· **ولكن بيجوتى قالت فجأة وكأنما تذكرت شيئا هاما :**

ـ انى أتعجب ·· ماهى اخبار عمة دافيد الكبرى ·· مس بيتسى تروتوود ·· ؟!

فقالت أمى :

ـ اعتقد انها مازالت تعيش فى كوخها قرب البحر ·· ويبدو أنها لم تعد راغبة فى مضايقتنا ·

ـ ربما ستغفر الآن لدافيد حكاية انه ولد ولم يكن بنتا كما كانت تريد ·· خصوصا بعد أن أصبح لدافيد أخا آخر ··

وعندئذ بدأت أمى **فى البكاء وقالت لبيجوتى بصوت حزين :**

ـ لماذا تفكرين فى ارسال دافيد الى عمته الكبرى مس تروتوود ·· لمجرد أنى ولدت له أخا ·· ؟

وبدأ شجار عاصف بين أمى وبيجوتى ، ولكنهما تصالحتا فى النهاية وغفرت كل منهما للأخرى ·· وقالت أمى أن بيجوتى هى صديقتها الحقيقية المخلصة ·

وسمعنا صوت عجلات احدى العربات وهى تتوقف عند باب البيت .. لقد وصل مستر ماردستون وأخته .. وعندما مد يده ليصافحنى .. نفس اليد التى عضضتها [illegible] ضربنى .. رأيت علامة حمراء مكان العضة ..

وعندما كنت أحيى مس ماردستون وأصافحها بيدى ، **سألتنى :**

ـ ما هى مدة الأجازة ؟

فقلت لها :

ـ مدتها شهر واحد ..

وأحضرت مس ماردستون ورقة وقلما ، وكتبت أيام هذا الشهر يوما يوما .. وفى كل صباح كانت تشطب على كل يوم يمر ..

لم تكن أجازة سعيدة بأى حال .. وكان من الواضح تماما أن مستر ماردستون وأخته لايطيقانى .. وفى حضورهما كانت أمى تخشى أن تبدر منها أية بادرة

عطف نحوى .. وكانت تخشى أن أقول كلمة أو أفعل شيئا يسبب المتاعب ..

ولهذا فقد عزلت نفسى فى حجرة نومى .. وكنت أقضى وقتى فى القراءة .. أو فى الجلوس فى المطبخ مع بيجوتى .. وعندما يكون مستر ماردستون وأخته موجودين .. كنت ألزم الصمت تماما ولا أنبس بكلمة ..

وقال مستر ماردستون انى ذو شخصية انعزالية كئيبة . **ثم أضاف :**

ـ وعليك ان تغير تلك الشخصية .. انك تتجنب الجلوس معنا فى غرفة المعيشة .. وتفـ[illegible] كما لو كنا مصابين بأمراض خطيرة ..

ولذلك فقد اضطررت أن أجلس صامتا وحزينا فى غرفة المعيشة يوما وراء يوم .. وكنت أتمنى حلول المساء حتى أتمكن من مغادرة الغرفة والتوجه الى غرفة نومى لأبقى وحيدا .. وبعيدا !

وأخيرا انتهت أيـــام الأجـــازة ٠٠ وقالـت مس ماردستون وهي تشطب آخر خانة في ورقتها :

- هاهو اليوم الأخير ٠٠ !

ووصلت عربة مستر باركيس الى باب البيت ٠٠ ووضعت فيها صناديقى ٠٠ وعندما قبلتنى أمى ، قالت لها مس ماردستون :

- كلارا ! ٠٠ كونى حازمة !!

وتحركت العربة ببطء ٠٠

وعندما التفت خلفى ٠٠ رأيت أمى مازالت واقفـة عند باب البيت حاملة على ذراعيها طفلها الرضيع ٠٠

وكانت هذه آخر مرة ٠٠ أرى فيها أمى على قيد الحياة ٠٠ !

١١ ـ وفقدت أمى ٠

وبعد نحو شهرين من عودتى الى سالم هاوس ٠٠ دخل مستر شارب الى حجرة الدراسة ، وطلب منى أن أذهب لمقابلة الناظر مستر كريكل ٠٠ واعتقدت أن هدية وصلتنى من بيجوتى ٠

كان مستر كريكل يتناول طعام افطاره ٠٠ وبجواره تجلس زوجته وفى يدها خطاب مفتوح ٠ وطالبت منى مسز كريكل أن أجلس فجلست ٠ وقامت من مقعدهـا وجلست بجوارى ٠ وقالت :

- هناك شىء أريد أن أخبرك به يابنـــى ٠٠ ان أمك مريضة جدا ٠٠ !

بكيت فورا وانهمرت دموعى ·· **ثم قالت مســـز كريكل :**

ـ كان مرضها خطيرا للغاية ··

وتوقعت كلماتها التالية :

ـ لقد ماتت !

وبعد ظهر اليوم التالى غادرت ســـالم هاوس · وعندما وصلت الى يارماوث لاســـتقل عربة مســـتر باركيس لاحظت أن مستر باركيس غير موجود ·· وأن شابا بدينا أحمر الوجه قد حل محله ··

واستقبلتنى بيجوتى عند الباب ·· ودخلت بن الى البيت وهى تبكى وتتحدث فى همس كما لو كانت تخشى أن توقظ سيدتها التى ماتت ·

وفى غرفة المعيشة كان مستر ماردستون جالسا يبكى ·· بينما انهمكت أخته فى الكتـــابة على بعض الأوراق ·

وحضرنا جميعا دفن أمى ·· ووقفنا طويلا عند قبرها ··

وفى مساء ذلك اليوم · جاءت بيجوتى الى حجرة نومى · وجلست بجوار سريرى · **وقالت :**

ـ لم تعد صحتها فى حالة جيدة منذ مدة طويلة ·· ولم تكن سعيدة فى حياتهـــا ·· كانت تغنى لطفلهـــا الرضيع بنعومة وحزن ·· وكانت خائفة بصفة مستمرة ، بل وكان خوفها يزداد يوما بعد يوم ·· وكانت بعض الكلمات القاسية التى توجه اليها أحيانا مثل الضربات الشديدة ·· وفى احدى الليـــالى اســـتدعتنى **وقالت لى :**

ـ بيجوتى ياعزيزتـــى ·· انـــى أعتقد بأنى فى طريقى الى الموت ·· لقد تعبت تماما من حياتى ·· ولو كان الموت مثل النوم ، فابقى بجوارى حتى أنام ·· ضـــعى يـــدك تحت رأســـى وأديـــرى وجهـــى نحوك ·· أن وجهك يبدو بعيدا بعيدا ·· وأنا أريـــده بقربى ···

وماتت ·· كما لو كانت طفلا صغيرا تسلل النوم الى عينيه ··

١٢ ــ بيجوتى تتزوج

وبعد فترة قصيرة من دفن امى فى قبرها .. قامت مس ماردستون باستدعاء بيجوتى ، وأخبرتها بأنها لم تعد فى حاجة الى خدماتها ، وأن عليها أن تغادر البيت ·

وقررت بيجوتى أن تذهب لتعيش فى بيت أخيها حتى تلتحق بعمل آخر مناسب · **وقالت لى بيجوتى وهى تشرح الموضوع :**

ــ والآن .. اعتقد ان مستر ماردستون وأخته

لايريدانك معهما فى الوقت الحاضر .. واعتقد سيسمحان لك أن تذهب معى ..

وبالفعل ، وافقت مس ماردستون على ذهابى مع بيجوتى ..

وعندما وصلت عربة مستر باركيس .. وضعنا فيها صناديقنا .. وطوال الطريق كان مستر باركيس يتصرف بأدب بالغ .. ولم يتكلم سوى كلمات قليلة وعندما وصلنا الى نهاية الرحلة فى يارماوث ، انتحى بى جانبا وسألنى :

ــ هل تعلم من هو المستعد ؟ .. « باركيس مستعد » .. !!

وبينما كنا نتوجه فى الطريق الى بيت أخيها سألتنى بيجوتى :

ــ دافيد ياعزيزى .. ماذا تقول اذا أنا قبلت الزواج منه ؟

ـ من مستر باركيس ؟ ‥ اعتقد أن هذا سيكون أفضل شىء ‥ فسوف يكون لديك فى هذه الحالة عربة وحصان ‥ وتستطيعين دائما أن تحضرى لزيارتى ‥

ومرت الأيام فى بيت مستر بيجوتى ‥ أيام متماثلة كغيرها من الأيام التى مضت ‥ ولكن لم نعد ـ أنا واميلى الصغيرة ـ نتمشى ونمرح على الرمال ‥ فقد انشغلت الآن بمذاكرة دروسها بالاضافة الى ماكانت تؤديه من أعمال البيت ‥

ولاشك فى أنها كانت تحبنى ‥ وتضحك لى وتداعبنى دائما ‥ لقد نضجت الآن ولم تعد طفلة صغيرة كما كانت من قبل ‥

وكان مستر باركيس يحضر كل مساء حاملا معه هدية لبيجوتى ‥ بعض الفواكه ‥ أو طير فى قفص ، أو قطعة من اللحم ‥ أو أشياء أخرى غريبة ،

وكان يأخذ بيجوتى للنزهة فى بعض الأحيان ، وحينما كانت تعود من تلك النزهات كانت تضحك وتضحك ‥



بيجوتى وباركيس ،

وفى احدى المرات صـــحبنا مستر باركيس ـ أنا واميلى وبيجرتى ـ فى عربته ٠٠ وعندما وصلنا الى الكنيسة توجه هو وبيجرتى الى الداخل وتركانا وحدنا بالعربة ٠

وبعد فترة خرجا من الكنيسة ٠ وسألنى مســـتر باركيس :

ـ هل تذكر الاسم الذى كتبته على جانب العربة ٠٠ لقد كان كلارا بيجرتى ٠٠ لقد تغير هذا الاســـم الآن وأصبح : كلارا باركيس ٠٠ !

لقد تزوجا ٠٠ !

الجزء الثالث

الشـــباب ٠٠

١٣ ـ وخرجت الى العالم

حان الوقت بعد ذلك لكى أعـــود الى البيت ·· وأخذنـــــى باركيس فى عربته ، وكانت بيجوتى تركب معنا ·· وعندما وصلنا . انزلانى أمام البوابة وتركانى وحدى ·· وأخذتنى الدهشة حين رأيت العربة تمضى فى طريقها آخذة معها · بيجوتى دون أن تنزل معى ··

وهكذا بدأت أكثر الفترات ظلاما وشقاء فى تاريخ حياتـــــى ·· فقد كان مســــتر ماردستون يكرهنـــــى ولا يطيقنى . وكذلك كانت أخته ·· فلم يتحدثا معى على الاطلاق ·· وعشت كالغريب فى بيتى . وأصبحت

أفضل أن أعيش فى أية مدرسة مهما كانت صـــعبه الظروف والأحوال ، فهذا أفضل بكثير من الحياة بمثل هذا الشكل ٠

وكانت بيجوتى تحضر لزيارتى كل اســـبوع ٠٠ وكنت أقضى وقتى كله بين كتب القصص والروايات ٠٠ وكنت اعتبر هذه الكتب خير أصدقائى ٠

وفى أحد الايام وصل الى البيت رجل اسمه مستر كوينيون ٠ واستدعانى مستر ماردســتون الى ء فة الجلوس وقال :

ـ هذا مستر كوينيون ٠٠ الموظف بشركة ماردستون وشـــركاه بلندن ٠٠ ســـتذهب لتعمل معه فى مكتبه بالشركة ٠٠ وستعيش هناك فى غرفة مستأجرة بمنزل أحد الأشخاص ٠

وهكذا وجدت نفسى فى النهاية جالسا جنبا الى جنب مع مستر كوينيون فى العربة المسافرة الى لندن ٠٠ وأنا لم أزل ولدا صغيرا ٠٠ يخرج وحيدا الى العالم ٠٠

١٤ ـ بداية العمل

وكان يعمل فى المكتب ثلاثة أولاد أخرون ٠٠ لم أتجاوب معهم ، وشعرت بقدر كبير من التعاسة ٠ وفى هذا اليوم الأول للعمل فى هذا المكتب ، ظللنا نعمل حتى الساعة الثانية عشرة ظهرا ٠ واســـتدعانى مســتر كوينيون الى حجرة مكتبه ٠ وهناك رأيت رجلا بدينـا يرتدى معطفا بنى اللون ٠ وكان اسمه مستر ميكاوبر ٠

قال مستر كوينيون :

ـ هذا هو الغلام ٠٠

فقال مستر ميكاوبر باهتمام ووقار وأدب :

ـ اذن هذا هو مستر كوبرفيلد ؟ ·· أرجو أن تكون فى خير حال يامستر كوبرفيلد ·· !

شكرته ، وتمنيت له نفس الشـــىء · **فقال بنفس الطريقة الوقورة المؤدبة ··**

ـ شكرا لله ·· أنا فى حالة طيبة ·· لقد تلقيت خطابا من مستر ماردستون يطلب منى فيه أن استضيفك فى منزلـى ·· وستســـكن فى احـــدى الغرف التى لا احتاجها فى الوقت الحالى ·

وقال مستر كوينيون :

ـ لقد استأجرنا لك غرفة فى بيت مستر ميكاوبر ·

وقال مستر ميكاوبر :

ـ عنوانى هو : وندسور هاوس · ســيتى رود ، « وباختصار » فأنا أعيش هناك ·

وقد لاحظت منذ البداية أن مستر ميكاوبر كان يقول العديد من الكلمات باسلوب معقد قليلا ثم يقول كلمة « باختصار » ويقول نفس الكلمات بطريقة سهلة



مستر ميكاوبر ·

مختصـــرة ·· كانت هذه هـى طريقتـه المعتادة فى الحديث · وبهذه الطريقة قال لى مستر ميكاوبر :

ـ اعتقد انك لم تتعرف حتى الآن على شوارع هذه المدينة الكبرى ·· ومن المتوقع أنك ستجد صعوبة وعناء حتى تكتشف ال[illegible]ى أعيش فيه ·· وبالاختصار سوف تفقد [illegible]تتوه ولهذا فسوف أحضر فى المساء لاصحبك معى لأريك الطريق الى هذا البيت ·

وارتدى مستر ميكاوبر قبعته وغادر المكتب ·

وعند حلول المساء ، عاد مرة أخرى ليأخذنى معه الى بيته · وهناك رأيت زوجته مسز ميكاوبر وأبناءه الأربعة · وقالت لى مسز ميكاوبر :

ـ لم أكن أظن مطلقـــا حين كنت أعيش فى بيت أمى وأبى ·· أن يوما ما سيأتى وأضطر فيه لتأجير احدى الغرف فى بيتى ليعيش فيها أحد الغرباء · ولكن مستر ميكاوبر يعانى من بعض الصعوبات المالية ·· ولا يترك له دائنوه فرصة من الوقت حتى يتمكن من رد ديونهم ··

كانت مسز ميكاوبر مسكينة حقا ·· وكانت تبذل كل مافى وسعها لمعاونة زوجها فى تلك الأزمة · فقد علقت على باب بيتها لافتة كتبت عليها :

« مدرسة مسز ميكاوبر لتعليم الفتيات » ·· ومع ذلك فلم تحضر الى البيت فتاة واحدة ·· والذين كانوا يحضرون الى البيت هم بعض الدائنين الذين كانوا يصرخون فى وجـه مســتر ميكاوبر ويطالبونه بـرد ديونهم ··

وكان هناك مجموعة اخرى من الدائنين يصرخون ويهددون مستر ميكاوبر حين كان يسير فى الشارع ·· ومجموعة ثالثة يطلقون تهديداتهم وصراخهم وهم يقفون تحت نوافذ البيت ·

وحينئذ كان مستر ميكاوبر يشعر بمنتهى التعاسة ويقول أنه يجب أن يقتل نفسه وينتحر ليتخلص من كل ذلك ·· ولكن بعد مرور أقل من نصف ساعة ، كان ـ وياللغرابة ! ـ يشرع فى تنظيف حذائه ، ويخرج من البيت وهو يغنى أغنية مرحة ويشعر بسعادة غامرة ·

وكانت مسز ميكاوبر على شاكلته · ففى الساعة السادسة مثلا ، أراها راقدة على الأرض وهى تبكى ·· ولكن قبل مرور أقل من ساعة ، كنت أراها فى قمة البهجة والسرور ·· وتحكى لى الكثير من القصص عن أمها وأبيها ·· وعن البيت الذى كانت تعيش فيه قبل أن تتزوج ·

وفى احدى الأمسيات عاد مستر ميكاوبر الى البيت حزينا · وأخذ يبكى عندما بدأ فى تناول عشائه · وقال أن الأمور قد تأزمت ولم يعد باقيا سوى أن يرسله دائنوه الى السجن بسبب عجزه عن سداد ديونهم ··

ولكن عندما انتهى مستر ميكاوبر من تناول عشائه ، أخذ يغنى أغنية مرحة ·· وقبل أن يتوجه الى سريره للنوم ، أخذ يحسب تكاليف عمل نوافذ كبيرة للبيت بدلا من تلك النوافذ الضيقة ·· وذلك عندما تتحسن الأحوال ·· !

ولكن الأحوال لم تتحسن ، بل وأخذ الزوجان يبيعان بعض الأشياء من بيتهما للحصول على الطعام ·

ولكنهما كانا لا يجسران على الخروج من البيت ومعهما أى شىء يريدان بيعه ، فقد كان الدائنون يتربصون بهما ويراقبونهما لمنعهما من بيع أى شىء من حاجيات البيت ·

ولذلك فقد كنت أتولى هذا الموضوع نيابة عنهما ·· كنت أخرج من البيت ومعى بعض الكتب أو بعض قطع الفضيات ·· أخبئها فى جيوبى أو تحت معطفى ، وأذهب لبيعها واعود سريعا لأعطيهما الثمن ··

واخيرا جاءت النهاية ·· وطلب الدائنون ادخال مستر ميكاوبر الى السجن[1] · وفى تلك الليلة زرته بالسجن وتناولت معه طعام العشاء · ثم عدت الى مسز ميكاوبر لأواسيها ·

وفوجئت بأن الدائنين قد أخذوا كل أثاث البيت ،

---

(١) كان هناك قانون فى انجلترا يقضى بسجن المدنيين الذين يعجزون عن سداد ديونهم · وفى مثل هذه الحالة كان يجوز للسجين أن يصحب معه أسرته الى السجن حتى تجد طعامها ·

ولم يتركوا سوى منضدة وبضع مقاعد قليلة . وقد عشنا بعض الأيام وسط هذه البقايا البائسة ، الى أن اضطرت مسز ميكاوبر الى أن تذهب ومعها ابناؤها – لتعيش مع زوجها فى سجنه . واضطررت أنا بالتالى الى مغادرة البيت . وعشت فى حجرة أخرى فى مكان قريب من السجن . وقد اعتدت على زيارة مستر ميكاوبر وأسرته فى السجن كل مساء .

وبعد فترة أطلق سراحهم ، فخرجوا من السجن وجاءوا ليعيشوا معى حيث كنت أعيش . ثم قرروا الرحيل الى مدينة بلايموث . وفى مساء يوم الاحد السابق لهذا الرحيل ، تناولنا جميعا طعام العشاء معا . وألقى مستر ميكاوبر خطبة قال فيها :

– ياصديقى الصغير .. ياصديقى العزيز .. أنا أكبر منك سنا .. واكثر منك خبرة فى الحياة .. والى أن تنصلح الأحوال .. وهذا ما أتوقعه .. فليس لدى ما أمنحك اياه سوى نصيحه واحدة .. ونصيحتى هى : اذا كان دخلك السنوى عشرين جنيها ، وانفاقك السنوى

عشرين جنيها الا ستة بنسات .. فسوف تعيش سعيدا مسرورا .. أما اذا تجاوزُ انفاقك السنوى العشرين جنيها ولو بستة بنسات .. فسوف يحل الشقاء والخراب .. ستذبل الزهور .. وتجف أوراق الشجر .. وتغيب الشمس فى الصحراء .. باختصار .. ستصبح مفلسا .. مثلى تماما .. !!

وحتى يؤكد مستر ميكاوبر نصيحته تلك ، أخذ يغنى ويرقص ..

وفى صباح اليوم التالى ، رحلوا وتركونى وحدى ولم يعد أمامى سوى أن أقرر الذهاب الى عمتى الكبرى مس بيتسى تروتوود .. قريبتى الوحيدة التى أعرفها

وهكذا جمعت حاجياتى القليلة ووضعتها فى صندوق . وخرجت الى الطريق . وعند احدى النواصى ، رأيت شابا يقف بجوار عربة ، فقلت له :

– هل يمكنك أن تحمل هذا الصندوق حتى تضعه فى العربة المسافرة الى دوفر .. كم تريد مقابلا لذلك .. ؟!

فقال الشاب :

ـ ستة بنسات ٠٠

وبالرغم من عدم ارتياحى لمنظر ذلك الشاب ، فقد وافقت ، ووضعت الصندوق على العربة الصغيرة التى كان يقف بجوارها . واخرجت حافظة نقودى لأعطيه اجره الذى اتفقنا عليه ٠٠ وفجأة انقض الشاب على حافظة النقود وخطفها من يدى . وانطلق هاربا بأقصى سرعة ٠

وفى اللحظة التالية ، اصبحت مفلسا وبلا نقود ٠٠ ولم اعد أمتلك شيئا فى هذا العالم ٠٠ وهكذا بدأت طريقى الى دوفر ٠٠ سيرا على الاقدام !

وعندما وصلت الى بلاك هيث ، قضيت الليل نائما فى احد الحقول بالقرب من مدرستى القديمة سالم هاوس ٠ وفى صباح اليوم التالى عاودت السير حتى وصلت الى روشستر ، ومنها توجهت الى شاتهام ٠٠ وهناك قررت ان ابيع معطفى لأحصل بثمنه على طعام يسد جوعى ٠٠

ودخلت الى مكان صغير ، يجلس فيه رجل عجوز له شكل قبيح ٠ **وبمجرد أن رآنى ، قال على الفور :**

ـ آه ياعينى ! ٠٠ آه يارجلى ! ٠٠ ماذا تريد ؟ ٠٠ أوه ٠٠ آه يا أذنى ! ٠٠ آه ياذراعى ! ٠٠ ماذا تريد ؟ جرررر ٠٠٠ !!

قلت له مندهشا :

ـ أريد أن أعرف ٠٠ هل يمكن أن تشترى معطفا ٠٠ أعطيك فقط شلنا واحدا وستة بنسات !

فقال العجوز على الفور :

ـ أوه ٠٠ آه ياقلبى ٠٠ آه يابطنى ! ٠٠ لا ٠٠ أعطيك فقط شلنا واحدا وستة بنسات !

وافقت ٠٠ ولكنه لم يعطنى النقود على الفور ٠٠ وانتظر فترة طويلة ٠٠ ثم بدأ يعطينى النقود فى عملات صغيرة أخذ يعدها ببطء ٠٠ كل نصف بنس وراء الآخر ٠٠

ثم واصلت بعد ذلك السـير حتى وصـلت الى دوفر ·· والى الكوخ الذى تعيش فيه عمتى الكبرى ·· ورأيتها وهـى تقف فى الحديقة الملحقة بالـكوخ ·· **وصرخت بمجرد أن شاهدتنى اقترب :**

ـ ابتعد عن هنـا ·· لا أريـد أولادا فى هذا المكان !!

فقلت لها متوسلا :

ـ لو سمحت يامس بيتسى ·· أنا دافيد كوبرفيلد · لقد ماتت أمى وأصبحت بائسا ·· !

ثـم انفجرت فى البكاء ولم اسـتطع أن أواصـل الكلام · وعندئذ طلبت عمتى من الخادمة أن تستدعى مستر ديك ··

ووصل مستر ديك بسرعة ·· وكان يبدو شـبه مجنون على نحو ما ·· **وقالت له عمتى :**

ـ مستر ديك ·· هذا هو دافيد كوبرفيلد !

فقال مستر ديك :

ـ اود ·· نعم نعم ···

وقالت عمتى :

ـ الآن ·· لا تتظـاهر بالجنـون بينما أنت فى الحقيقة رجل ذكـى ·· هذا هو دافيد كوبرفيلد ·· أخبرنى ·· ماذا أفعل معه ؟ !

فقال مستر ديك وهو ينظر نحوى :

ـ دعيه يستحم !

وأعطونى حماما ·· ثم تناولنا العشـاء معا ·· وحكيت لعمتى كل ماحدث ·· وكانت عمتى مستغرقة فى الانصات ·· **ثم قالت :**

ـ انى لا أستطيع أن أفهم لماذا يتزوج الناس ·· ان أمك قد تزوجت ·· ثم تزوجت مرة أخرى ·· وتلك المرأة بيجوتى ·· تزوجت هى الأخرى !

والتفتت عمتى الى مستر ديك وقالت له :

ـ والآن يامستر ديك ·· اخبرنى ماذا افعل معه ايضا ··

فقال مستر ديك :

ـ علينا أن نضعه فى السرير لينام ·· !

١٥ ـ فرار عمتى

كانت عمتى جالسة الى عائدة الافطار حين قالت لى :

ـ لقد كتبت الى مستر ماردستون ·· والآن بعد أن تناولت افطارك ، عليك بالصعود الى السطح حيث مستر ديك ·

فقلت :

ـ حاضر !

وقالت :

ـ انه قريبى ··

وقلت :

ـ هل هو **مجنون قليلا** ٠٠ ؟

قالت :

ـ كان أخوه ينوى ايداعه فى دار **للمجانين** ٠٠ ولكنى انقذته من هذا المصير ، وسمحت له بأن يعيش فى بيتى ٠٠ انه رجل عطوف جدا ٠٠ وكثيرا مايقول نصائح طيبة بالرغم من أنه مجنون قليلا ٠٠ فهو يتحدث كثيرا عن رأس الملك تشـــارلس المقطوعة(١) ٠٠ وهو يكتب شكاوى كثيرة يقول أنه ينوى أن يرســـلها الى القاضى ليشرح له فيها أحواله وشئونه وأعماله ٠٠ ولكن رأس الملك تشارلس تظهر دائما لتتدخل فى هذه الشكاوى ٠٠ ولذلك يبدأ فى كتابة شكاوى أخـــرى غيرها ٠٠ !

وصعدت الى السطح ٠٠ الى مســـتر ديك الذى

(١) كان اتباع كرومويل قد قطعوا رأس الملك تشارلس الأول فى سنة ١٦٤٩ م ٠

أرانى « طيارة ورقية » ذات خيط طويل ومغطاة كلهـا بشكاوى مكتوبة تتحدث عن رأس الملك تشـــارلس المقطوعة ٠ **وقال مستر ديك :**

ـ بهذه الطيارة أرسل أفكارى الى العـــالم ٠٠ وكلما صعدت الطيارة الى عنان السماء ٠٠ كلما صعدت أفكارى الى أعلى وأعلى ٠٠ !

وبعد عدة أيام وصل مستر ماردستون وأخته مس ماردستون الى بيت عمتى ٠٠ وجلسا ٠٠ **وقالت عمتى :**

ـ انت اذن مستر ماردستون الذى تزوج مســـز كوبرفيلد ٠٠ ؟

فقال مستر ماردستون :

ـ نعم ٠٠ هو أنا ٠

وقالت عمتى وهى تشير الى :

ـ وهذا هو ابنها ٠٠ ؟

فقال مستر ماردستون مؤكدا :

ـ نعم ·· ولقد فر هاربا من اصدقائه بعد أن ترك عمله ·· لقد سبب لنا الكثير من المتاعب !

وعقبت مس ماربستون على كلامه قائلة :

ـ انه دون جميع الأولاد ·· اسوأ ولد فى العالم !

ثم واصل مستر ماردستون كلامه :

ـ لقد جئت لأعيده معى اذا كان هو مستعدا للعودة ·· أما اذا كان غير راغب فى ذلك فسوف أغلق فى وجهه أبوابى ·· وأظن انك فى هذه الحالة ستفتحين له أبوابك !

والتفتت عمتى الى وسألتنى :

ـ هاه ·· ما رأيك ؟ ·· هل تريد العودة معه ؟·!

فأجبت على الفور :

ـ لا ·· لا ·· انهما يكرهانى ·· ولم يعطفا على أبدا ·· لقد جعلا أمى تعيش حياة تعيسة ·· أرجوك ·· أرجوك ياعمتى ·· لاترسلينى معهما ·· !

فالتفتت عمتى الى مستر ديك وسألته :

ـ **والآن يامستر ديك ·· ماذا أفعل معه ·· ؟!**

وأخذ مستر ديك يفكر طويلا · ثم قال :

ـ يجب أن اشترى له بعض الملابس !

وهنا التفتت عمتى الى مستر ماردستون وقالت له :

ـ سأحتفظ بالولد ·· وأنا لا أصدق كلمة واحدة مما قلته عنه ·· أنا أعرف ماحدث تماما ·· قبل أن تتزوج أمه قلت لها انك ستصبح أبا ثانيا لابنها ·· ولكن بعد أن تزوجتها أجبرتها على أن تغير مشاعرها نحو ابنها ·· لقد كانت امرأة عطوفة طيعة ، ولكنك كنت تقسو عليها وتقسو على ابنها ·· [illegible]رهه لأن مجرد رؤيته كانت تذكرك بمدى قسوتك ·

وعندئذ وقف مستر ماردستون بجوار الباب ، وكان يبدو شاحب الوجه · **وقالت عمتى :**

ـ وداعا لك ·· وداعا يامس ماردستون ·· !

وبعد أن رحل مستر ماردستون واخته ·· قبلت عمتى ·· وصافحت مستر ديك ·· **وقالت عمتى :**

ـ من الآن سأدعوك : دافيد تروتوود كوبرفيلد ·!

وهكذا بدأت حياة جديدة ··باسم جديد ··

وهكذا ذهبت جميع الحوادث التى جرت لى فيما مضى بعيدا بعيدا ·· وأصبحت مجرد ذكريات ··

١٦ ـ وبدأت بداية جديدة

سرعان ما أصبحت أنا ومستر ديك اصدقاء مخلصين · وكثيرا ماكنا نخرج معا لتطيير « طيارته الورقية » الكبرى ·· وكان يقضى ساعات طويلة كل يوم يعمل بهمة فى كتابة الخطاب الذى ينوى ارساله الى القاضى ·· ولكنه كان لاينتهى من هذا الخطاب اطلاقا ·· لأن سيرة الملك تشارلس الأول كانت تفرض نفسها على موضوع الخطاب مهما حاول هو أن يتلافى ذكر هذه السيرة · وعندئذ كان يتوقف عن الكتابة ، ويشرع على الفور فى كتابة خطاب جديد ·

وكانت « الطيارة » مصنوعة بأكملها من أوراق

الخطابات التى توقف عن اكمالها وألقاهـــا جانبا . وعندما كان يشرع فى تطيير « الطيارة » كان يبدو فى قمة الاحساس بالسلام والســـعادة . وعندما كانت الطيارة تبتعد عاليا فى عنان السماء ، كانت تبدو كما لو كانت قد أبعدت شعرة الجنون عن عقله ·· أما حين كانت تهبط الى الأرض وتستقر عليها ، فقد كانت تبدو فى نظره كشىء ميت لاحول له ولا قوة ، وعندئذ كان يشعر كما لو أنه قد أفاق من حلم ·· وأنه هو والطيارة قد هبطا الى الأرض معا ·· وعندئذ كنت أشفق عليه واشعر بالحزن والأسف من أجله ··

وأصبحت عمتى شديدة العطف على ، واختصرت اسمى الى « تروت » بدلا من « تروتوود » ·· **وفى احدى الامسيات قالت لى عمتى :**

– تروت ·· يجب ألا ننسى موضوع دراستك ·· فهل تحب أن تذهب الى مدرسة فى كانتربرى ·· ؟

– نعم ·· أحب ذلك كثيرا ··

– عظيم ·· هل تحب أن تلتحق بالمدرسة غدا ··؟

وهكذا سافرنا فى صباح الغد الى كانتربرى ·· **وعندما وصلنا الى هناك قالت عمتى :**

– علينا أن نذهب أولا الى بيت مستر ويكفيلد ·· انه محام !

وتوقفنا أمام بيت قديم جدا ، تبرز نوافذه مطلة على الشــــارع . وتؤدى الى بابه درجتان حجريتان شديدتا البياض ·· أما النوافذ فقد كانت مصــــنوعة من مربعات زجاجية صغيرة غريبة الشكل ··

وعندما توقفت العربة أمام باب البيت ·· رأيــت وجها أبيض يطل من احدى النوافذ ·· ثم فتح لنا الباب رجل اسمه يورياه هيب له وجه أبيض ، وعينان لهما لون هو مزيج من الأحمر والبنى ، وكتفان مرتفعان ، وذراعان طويلتان نحيفتان ·· وقد لاحظت ذلك عندما وقف هذا الرجل بجوار الحصان الذى يجر العربة ، وبدأ يربت على خده ·· **وسألته عمتى :**

– يورياه هيب ·· هــــل مستر ويكفيلد موجود بالبيت ·· ؟

ـ نعم ·· مستر ويكفيلد موجود بالبيت ·

وأشار الينا بذراعه الطويلة الى مكــــان حجــرة الاستقبال ·· وفوق رف المدفأة التى تتصدر الحجرة ، رأيت صورة لجنتلمان رمادى الشعر ، تقف الى جانبه سيدة جميلة ذات ملامح طيبة وديعة ·

وبعد لحظات دخل الينا مســـتر ويكفيلد ·· انه نفس الجنتلمان الذى يظهر فى الصورة ، وان كان يبدو الآن أكبر عمرا ببضع سنوات ·

وقال لعمتى :

ـ أهلا بك يامس تروتوود ·· ماسبب حضــورك الى هنا ·· ؟

فقالت عمتى :

ـ هذا هو دافيد تروتوود كوبرفيلد ·· وأنا عمته الكبرى ·· انى أبحث له عن مدرسة يتعلم فيها جيدا ويعامل فيها معاملة حسنة ·· اخبرنى أين أجد هنا مثل هذه المدرسة ·· ؟ !



ودخل مستر ويكفيلد الى الحجرة .

وقال مستر ويكفيلد :

ـ توجد هنا مدرسة جيدة ٠٠ ولكن دافيد لن يمكنه أن يعيش فيها فى الوقت الحاضر ٠٠ ومع ذلك فسأخبرك بما يجب عليك أن تعمليه ٠٠ أتركيه هنا ٠٠ انه ولد هادىء ٠٠ وبيتى بيت هادىء ٠٠ أتركيه معى فى هذا البيت !

فشكرته عمتى شكرا جزيلا ٠٠ وواصل مستر ويكفيلد حديثه :

ـ تعالى معى لأريك المشرفة الصغيرة التى تتولى شئون هذا البيت ٠٠

وصعد بنا الى الطابق العلوى ٠٠ ودخلنا الى حجرة منظمة ذات رونق جميل ، رأينا فيها فتاة جميلة فى مثل عمرى ، سرعان ماهبت واقفة واتجهت الى مستر ويكفيلد وأخذت تقبله ٠٠ كانت الفتاة تشبه تماما المرأة الجميلة المرسومة فى الصورة ٠٠ نفس الجمال الهادىء الوديع الذى لم أنسه أبدا ٠٠ بل ولن انساه أبدا ٠٠

وقال مستر ويكفيلد :

ـ هذه هى ابنتى آجنس ٠٠

ثم التفت الى ابنته وقال :

ـ آجنس ٠٠ دافيد كوبرفيلد ضيفنا وسيبقى معنا ٠٠ من فضلك أريه حجرته ٠٠

وبعد أن ذهبنا جميعا لنرى الحجرة ، قررت عمتى أن تعود بسرعة الى دوفر لتصلها قبل أن يحل الظلام ٠٠ ولكن قبل رحيلها انفردت بى وقالت تنصحنى :

ـ تروت ٠٠ حافظ على نفسك وكن محترما ٠٠ وعليك أن تلتزم بكل مايشرفنى ويشرف مستر ديك ٠٠ والله معك ويتولاك ٠ ٠كن أمينا فى كل شىء ٠٠ واياك أن تصبح كاذبا أو مخادعا ٠٠ ولا تكن قاسيا ٠٠ والآن على أن أرحل فورا ٠٠

وقبلتنى بسرعة ، وخرجت من الحجرة بعد ان أغلقت على بابها ٠٠ ولذلك فقد اعتقدت أن عمتى غاضبة منى ٠ ولكنى عندما نظرت خلال النافذة التى تطل على الشارع ٠٠ رأيت كم هى حزينة وهى تدخل الى

العربة ·· لقد تظاهرت بالغضب لتخفى مشاعرها الحقيقية ·

وفى المساء تناولت العشاء مع مستر ويكفيلد وابنته آجنس ·· وبعد أن انتهينا من العشاء ، غنت آجنس اغنية لطيفة ·· ثم قبلت أباها قبلة المساء وذهبت الى حجرتها لتنام ··

أما أنا فقد خرجت لأتجول قليلا فى الأماكن القريبة ·· ورأيت عددا كبيرا من البيوت القديمة والكنائس · وعندما عدت الى البيت ، رأيت يورياه هيب وهو يغلق أبواب المكتب ·

ولما كنت أشعر بالصداقة والود نحو الجميع ، فقد جلست قليلا مع يورياه وتحادثنا لبضع دقائق · ومددت يدى لأصافحه قبل أن أصعد الى حجرتى ·· وكم كانت يده باردة ·· لقد أخذت أمسح يدى بعد ذلك كما لو كنت أريد أن أمحو آثار يده ·

وعندما رقدت على السرير ·· كنت لم أزل أحس بعقلى ·· ملمس يده الباردة المبتلة ··

١٧ ـ آجنس

فى صباح اليوم التالى ، ذهبت مع مستر ويكفيلد الى المدرسة · كانت بناء ذا مظهر وقور ، يقع وسط ساحة واسعة · وقدمنى مستر ويكفيلد الى الدكتور سترونج ناظر المدرسة ·· وكان رجلا غير مهندم ويعلو التراب ثيابه ، وله شعر رأس أطول من المعتاد ·

نظر الدكتور سترونج الى بعينين باردتين · وقال انه مسرور لرؤيتى · ومد يده ليصافحنى · وكانت تجلس بجانبه شابة صغيرة شديدة الجمال ، ظننت فى

البداية أنهـــا ابنته ، وعلمت فيما بعد أنها مســـز سترونج ·· زوجته !

وصحبنى الناظر ليرشدنى الى حجرة الدراسة ، حيث رأيت نحو أربعة وعشرين تلميذا ، كلهم كانــوا مشغولين بمطالعة كتبهم · ووقفوا جميعا عندما دخـل الناظر ، وأشار الى قائلا :

ـ هذا زميل جديد أيها السادة الصغار ·· اسمه تروتوود كوبرفيلد ··

وخرج من بين المقاعد صبى اسمه آدمز ·· رحب بى ·· وأرشدنى الى مقعدى ·

وشعرت بالغربة بين هؤلاء الأولاد ·· فجميعهم لا يعرفون شيئا عن تجاربى السابقة ·· كما انى لاأعرف شيئا عن كيفية ألعابهم وطرقهم فى التعامل ·· وأخذت أتخيل ماذا يظن هؤلاء الأولاد بى ، اذا علموا أنـــى كنت أعيش مع أشخاص مثل ميكاوبر وأسرته ·· أو اذا كانوا قد شاهدونى حينما سرت على قدمى من لندن الى دوفر جائعا رث الثياب ·· ؟!

لم أشعر بالارتياح بين هؤلاء الأولاد ·· بل ربما شعرت بالخوف منهم ·· لذلك فقد سارعت فى الانصراف عقب انتهاء اليوم الدراسى · وبمجرد وصولى الى بيت مستر ويكفيلد تبددت مخاوفى وتعاستى · وجلست فى حجرتى المنظمة الجميلة أقرأ فى كتبى حتى حل موعـد العشاء ، فنزلت الى الطابق الســـفلى ورأيت آجنس جالسة فى غرفة المعيشة · وبعد لحظات وصل والدها مستر ويكفيلد · وقال :

ـ ستكون سعيدا فى مدرسة الدكتور سترونج !

وبعد الانتهاء من تناول العشاء أحضرت آجنس مجموعة من زجاجات الشراب ووضعتها على المـائدة أمام مستر ويكفيلد الذى بدأ على الفور يحتسى الشراب كأسا وراء آخر ·

وشرب مستر ويكفيلد كمية كبيرة ·· وغنت آجنس بعض الأغانى القصيرة ·· ثـــم جلست بجوار أبيها وأخذت تحادثه ··

أما أنا فقد أحضرت كتبى وبدأت فى مذاكرة دروسى ·· وتفحصت آجنس بعض هذه الكتب ثم جلست بجوارى لتساعدنى فى المذاكرة ·

والآن ·· بينما اكتب هذه الكلمات من قصة حياتى ·· مازلت أذكر تماما كيف أحسست بوداعتها وطبعها الهادىء ·· وكيف احسست بصوتها الوديع العذب وهى تتكلم ·· ومازلت الى الآن أشعر بأفضالها على فى تلك الفترة وفيما بعد أيضا ··

لقد أحببت من قبل اميلى الصغيرة ·· ولكنى أصبحت أشعر بالفضل ·· والوداعة ·· والسلام ·· والصدق ·· أينما تكون آجنس ··

١٨ ـ يورياه هيب ·· المتواضع

وبعد ذلك ذهب مستر ويكفيلد الى المكتب ليواصل عمله ·· وفى المكتب رأيت ضوءا خافتا ، ورأيت يورياه جالسا ويقرأ فى كتاب ضخم ، ويتتبع كل سطر يقرأه باصبعه · فقلت له :

ـ انك تعمل حتى وقت متأخر هذه الليلة يايورياه '

ـ هذا صحيح يامستر كوبرفيلد ·· ولكنى لا أشتغل الآن باعمال المكتب ·· انى أدرس القانون ·

ـ تدرس القانون ؟ ·· كنت أظن أنك محام كبير '

ـ لا يامستر كوبرفيلد ·· أنا شخص متواضـــع جدا ·· وأمى أيضا متواضعة جدا ·· وأعيش معها فى بيت متواضع ·· وكان أبى أيضا رجلا متواضعا ·· ويعمل فى مهنة متواضـــعة ·· لقد كان خـــادما فى كنيسة ، ويقوم أيضا بحفر القبور فى ساحتها ·

فسألته :

ـ وأين هو الآن ·· ؟

ـ فى السماء ·· ولكن لدينا أشياء كثيرة نحمد الله عليها ·· فأنا أحمد الله لأنـــى أعمل مع مســـتر ويكفيلد ·· وأتمنى أن أصبح محاميا ·

ـ وعندئذ ستشارك مستر ويكفيلد فى مكتبه ·· وسيصبح اسم المكتب « ويكفيلد وهيب » ··

ـ لا يامســـتر كوبرفيلد ·· انى متواضـــع جدا ولا أجسر على فعل ذلك ·· ان عمتك سيدة لطيفة ··

وكان يورياه هيب معتادا على تحريك جسمه عندما



يوريـــاه هيب ·

كان يتحدث بكلام طيب عن أى شخص ٠٠ وفعل ذلـك عندما كان يحدثنى عن عمتى :

ـ انها سيدة لطيفة ٠٠ وهى معجبة كثيرا بمس آجنس ٠٠ أليس كذلك ٠٠ ؟!

فأجبت دون أن ادرى بما اقول :

ـ نعم ٠٠ نعم ٠

وسألنى يورياه :

ـ وأنت أيضا معجب بها ٠٠ أنا متأكد من أنـك معجب بها ٠٠ !

فقلت :

ـ ان أى شخص لابد أن يعجب بها !

ـ أوه ٠٠ شكرا لك يامستر كوبرفيلد على هـذه الكلمات ٠٠ شكرا لك ٠٠ انها كلمات صادقة !

وقام متأهبا للانصراف ٠ وهو يقول :

ـ ان أمى تتوقع الآن عودتى ٠٠ لو أنك فكرت فى زيارتنا فى بيتنا المتواضع ٠٠ فسوف يسعدها ذلـك كثيرا ٠

فقلت له أن ذلك سيسعدنى أيضـا ٠ **وقال قبل أن ينصرف :**

ـ ربما ستبقى هنا فى هذا البيت يامستر كوبرفيلد لمدة طويلة ٠٠ وربما ستتولى العمل بدلا من مسـتر ويكفيلد فى النهاية ؟ !

ـ لا ٠٠ أنا لا أفكر فى مثل ذلك اطلاقا ٠٠

ـ أوه ٠٠ أنا متأكد من أن ذلك سيحدث ٠

ووضع يده فى يدى ليصـافحنى ٠٠ فأحسـست بملمس يده وكأنها سـمكة ٠٠ وحلمت بذلك فى تلك الليلة ٠٠

١٩ ـ مدرسة الدكتور سترونج

كانت مدرسة الدكتور سترونج رائعة وعظيمة · وتختلف تماما عن مدرسة مستر كريكل · وكانت الثقة متبادلة بين التلاميذ والمدرسين ·· وكنا نشعر جميعا باننا مسئولون عن نجاح المدرسة فى اداء رسالتها · ولذلك فقد كنا نحب المدرسة ونعمل كل مايشرفها ويشرفنا ·

وكان بعض التلاميذ يعيشون فى بيت الدكتور سترونج ·· وهم الذين اخبرونى بأن الدكتور قد تزوج

منذ نحو عام مضى من هذه الشابة الصغيرة الجميله التى رأيتها معه ·

وكان الدكتور يقوم بتاليف أحد الكتب ·· ولكنه كان بطيئا للغاية ، لدرجة الاحساس بانه لن ينتهى من تاليف كتابه هذا قبل مرور الف سنة ! ·· ولكنه كان رجلا طيبا كثير العطف على الفقراء · ويحكى الأولاد قصة طريفة عن كرمه ·· فقد أعطى معطفه لامرأة فقيرة ·· ولكن المرأة باعت المعطف لتشترى بثمنه خمرا تشربه ·· وبعد مدة ، شاهد الدكتور المعطف معروضا فى احد المحلات ، فاشتراه دون أن يدرك انه نفس معطفه الذى وهبه للمرأة ·

واستلمت خطابا من بيجوتى كتبت فيه بعض اخبارها ·· قالت ان مستر مأردستون واخته مس ماردستون قد رحلا بعد ان اغلقا البيت ·· وأن زوجها باركيس فى حالة طيبة ولكنه شديد الحرص على نقوده ·· وأن مستر بيجوتى أيضا فى حالة طيبة ،

وكذلك هام واميلى الصغيرة ·· أما مسز جاميدج فقد كانت مريضة ·

وكانت عمتى تفاجئنـى بالزيارة فى أوقـات غير متوقعة لترى كيف تسير أحوالـى ·· ولكنها اطمأنت تمامـا بعد أن تأكدت من حرصـى على التعلم واداء واجباتى · وكنت اذهب الى دوفر لزيارتها مـرة كل ثلاثة أو أربعة أسابيع ·· أما مستر ديك فقد كان يحضر لزيارتى بصفة منتظمة كل يوم أربعاء ·· وكان يحمل معه دائما حقيبة أوراقه وآخر ماكتبه من خطابه العظيم الذى ينوى أن يرسله للقاضى ·· !

وأصبحت أيام الأربعاء هذه أسـعد أيام مسـتر ديك ·· اذ سرعان ما أصبح معروفا ومحبوبا من جميع تلاميذ المدرسة ·· كان لايشاركهم فى اللعب ، ويكتفى بمشـاهدة ألعـاب التلاميذ وينفعل بهـا ·· وكان يجد متعة عظيمة وهو يتفرج على الأولاد وهم يمرحون ويلعبون على الثلوج المتساقطة ·

وكان مستر ديك يجيد صناعة لعب مثل القوارب والعربات الصغيرة ·· يصنعها من مواد غريبة ويعلم الأولاد كيف يصنعونها · ولذلك فقد أحبه جميع الأولاد وأصبحوا ينتظرون موعد مجيئه للزيارة القادمة ·

وكان يحترم الدكتور سترونج ، ويقف أمامه بأدب بالغ بعد أن يخلع قبعته ·· وسرعان ما اصـبح هو والدكتور صديقين حميمين · بل وبدأ الدكتور يتلو عليه بعض صفحات من الكتاب الذى يقوم بتأليفه ·· وعندئذ كان مستر ديك ينصت بامعان ويشرق وجهه بالسرور ·· بالرغـم من يقينى بانه لايفهم كلمة واحدة مما يقوله الدكتور ··

٢٠ ـ تناولت الشاى مع يورياه هيب

وفى عصر أحد أيام الخميس ، قابلت يورياه هيب فى الشارع · **فقال لى :**

ـ لقد وعدتنى بأنك ستحضر لتناول الشاى معنا أنا وأمى ·· ولكنى أتوقع أنك لن تقبل هذه الدعوة ·· فنحن ناس متواضعون جدا ··

وحتى تلك اللحظة ، لم أكن قد أدركت بعد هل أنا أحب يورياه هيب أم أكرهه · ولكنى اخبرته بأنى على استعداد لقبول دعوته · **فقال :**

ـ ان أمى ستكون فخورة بذلك ·

وسالته :

ـ هل مازلت تواصل دراسة القانون ·· ؟

فاجاب :

ـ ان قراءتى لكتب القانون لا ترقى الى مستوى لدراسة ·· ففى بعض الأمسيات أقضى ساعة 'و ساعتين فى قراءة كتب القانون ·· ولكنى أصادف عض الصعوبات ·· فهناك بعض الكلمات والمصطلحات مكتوبة باللغة اللاتينية ولا استطيع أن افهمها ··

ـ هل تحب أن اساعدك فى تعلم اللاتينية ·· ؟

ـ أوه ·· شكرا لك يامستر كوبرفيلد على هذا العرض الطيب ·· ولكنى متواضع وذليل ولا استحقه هانحن قد وصلنا الآن الى بيتنا المتواضع !

ودخلنا الى غرفة منخفضة السقف · وقالت مسز هيب (أم يورياه) وكانت تشبهه الى حد كبير وان كانت أقصر منه طولا · **وقد استقبلتنى بتواضع شديد وهى تقول :**

- ان هذا يوم لا ينسى ياعزيزى يورياه .. أن حضور مستر كوبرفيلد لزيارتنا يعتبر شرفا كبيرا لنا .

ثم التفتت الى وقالت :

- كان عزيزى يورياه يخشى أن يمنعك تواضعنا وفقرنا من تلك الزيارة التى وعدته بها .. فنحن متواضعون جدا وفقراء .. وسنبقى هكذا دائما ..

فقلت مندهشا :

- ولكنى على يقين من أنه ليست هناك حاجة لأن تكونا متواضعين بهذا الشكل ..

فقالت مسز هيب :

- شكرا لك يا سيدى !

وجلست مسز هيب بالقرب منى .. وجلس يورياه امامى .. واخذا يعطيانى افضل قطع الطعام الموجودة على المائدة .

تحدثنا عن خالاتهما وعماتهما ، فتحدثت عن

عمتى .. ثم تحدثنا عن الآباء والأمهات ، فتحدثت عن أبى وأمى .. ولكنى توقفت فجأة بعد أن تذكرت ان عمتى نصحتنى بألا أتحدث فى هذا الموضوع مع أحد ..

ومع ذلك فقد فقدت المقاومة مع يورياه هيبوأمه اللذين استدرجانى الى الحديث فى كل ماكانا يرغبان معرفته .. حتى تلك الأشياء التى لم اكن ارغب فى ذكرها .

وعندما انتهيا من معرفة كل ماكان يرغبان فيه ، حولا مجرى الحديث الى ذكر اخبار مستر ويكفيلد وابنته آجنس .. الأشغال الكثيرة التى يعملها .. وكيف يقضى وقته بعد تناول عشائه .. والخمر الكثيرة التى يشربها .. وهكذا وجدت نفسى متورطا فى ذكر جميع الاشياء التى لايجب أن اذكرها ..

وبدأت أتململ وأرغب فى انهاء هذه الزيارة .
وفجأة : رأيت رجلا كان يسير فى الشارع .. ولكنه توقف أمام باب الحجرة وأطل برأسه الى داخلها ، **وصاح مندهشا :**

- كوبرفيلد !! .. هذا مستحيل !!

كان هذا الرجل هو مستر ميكاوبر بعينه .. !

والحقيقة انى كنت لا أريد أن يعرف يورياه هيب ولا امه انى أعرف رجلا مثل مستر ميكاوبر .. ولكن هذا الأمر انتهى تماما .. بعد أن استمر مستر ميكاوبر فى صياحه :

- ياعزيزى كوبرفيلد .. انها حقا مصادفة مدهشة !

ثم التفت الى يورياه وامه وقال لهما :

- انها مفاجاة عظيمة .. لقد اكتشفت أن صديقى كوبرفيلد يتناول معكما الشاى .. وسيكون من دواعى الشرف بالنسبة لى أن يعرفكما بى ويعرفنى بكما ..

فقمت بذلك على مضض ..

وقالت مسز هيب :

- اننا ناس متواضعون .. وقد شرفنا مستر

كوبرفيلد بقبول الدعوة لشرب الشاى معنا .. اننا نشكر له هذا الجميل !

وقال مستر ميكاوبر يحدثنى :

- والآن .. ماذا تعمل يا كوبرفيلد ؟

فقلت له :

- انى أدرس بمدرسة الدكتور سترونج .

ولأنى أصبحت راغبا الآن فى انهاء الزيارة فورا ومصاحبة مستر ميكاوبر الى الخارج ، فقد قلت له وأنا اهم بالقيام :

- وكيف حال مسز ميكاوبر ؟ .. هل يمكننى الذهاب معك لزيارتها .. ؟

فقال وهو يتاهب للانصراف معى :

- سيكون هذا من دواعى سرورى .

وذهبت معه الى حانة صغيرة كان يعيش مع زوجته فى احدى حجراتها . وسالتهما مستفسرا :

ـ ولكن ٠٠ لماذا جئتما الى هذه المنطقة ؟

فأجابت مسز ميكاوبر :

ـ بعض أقاربى يقيمون هنا ٠٠ وكنت أتوقع أنهم سيساعدوننا بايجاد عمل لمستر ميكاوبر ٠٠ ولكنى شعرت بأنهم غير مسرورين لرؤيتنا ٠٠ وكان الشىء الوحيد أمامنا هو أن نقترض منهم بعض النقود لنتمكن من العودة الى لندن ٠٠ ولكننا توقفنا هنا لعلنا نجد عملا فى صناعة الفحم ٠٠

وقبل أن تنتهى الزيارة طلبا منى أن أقبل الدعوة لتناول العشاء معهما فى اليوم التالى ٠٠ ولم استطع رفض الدعوة ٠٠

وفى عصر اليوم التالى ، استدعيت من حجرة الدراسة ، فخرجت ورأيت مستر ميكاوبر ينتظرنى ويخبرنى بأن العشاء جاهز ٠

وفى المساء رأيت مستر ميكاوبر ويورياه هيب يسيران معا ذراعا فى ذراع ٠٠ ولم يسرنى هذا المنظر ولم أرتح له ٠٠

وبعد ظهر اليوم التالى ، ذهبت لزيارة مستر ومسز ميكاوبر فى الحانة ٠٠ وتناولنا العشاء معا ٠٠ **وأخذ يحدثنى عن يورياه قائلا :**

ـ ان صديقك يورياه هيب ٠٠ له عقل كبير واسع الادراك ٠٠

وكان العشاء طيبا ٠٠ وكان مستر ميكاوبر فى غاية المرح ٠٠ وغنى أغنيات كثيرة ٠٠ وعشنا جميعا لحظات رائعة من الصداقة والود ٠٠ ولا أظن أنى رأيت أحدا فى حياتى أسعد وأهنأ من مستر ميكاوبر فى تلك الأمسية ٠

ومع ذلك ٠٠ ففى الساعة السابعة من صباح اليوم التالى ، تلقيت هذه الرسالة العاجلة :

« **لقد انتهى كل شىء ٠٠ ولم يعد هناك أمل فى الحصول من أقارب زوجتى على أية نقود ٠٠ لقد أصبحت عاجزا عن سداد ما أنا مدين به ٠٠ وسيكون مصيرى السجن فورا ٠٠ وهذا آخر ماسوف تسمعه عنى** » ٠

اندهشت وشعرت بالخوف والاضطراب بسبب هذه الرسالة المفاجئة · وانطلقت صوب الحانة لعلى استطيع أن أقدم أية مساعدة ··

ولكن بينما كنت منطلقا فى الطريق ·· رأيت عربة السفر الى لندن منطلقة هى الأخرى ·· وفى مؤخرتها كان يجلس مستر ميكاوبر وزوجته ·· وكان يبدو فى قمة السعادة ويقهقه ضاحكا على شىء قالته مسز ميكاوبر فيما يبدو ·· وكانا يأكلان بعض الحلويات من لفة ورقية كانت تضعها مسز ميكاوبر على ركبتيها ··

الجزء الرابع

العالم ··

٢١ ـ وتركت المدرسـة

انتهت دراستى بالمدرسة ، وأصبح من الضرورى أن نتناقش أنا وعمتى فى موضوع مستقبلى ونوع العمل الذى سأشغله · **وقالت عمتى :**

ـ ان هذا موضـوع هـام ·· وعلينا أن نكون حريصين ولا نرتكب خطأ ·· وعليك أن تفكر فى هذا الأمر كرجل ناضج ، وليس كتلميذ فى مدرسة !

فقلت لها :

ـ سأفعل ذلك ياعمتى !

ـ اذن ٠٠ اعتقد ان السفر وتغيير الجو سيكونا مفيدين ٠٠ ان ذلك سيساعدك على التفكير واتخـــاذ القرار المناسب ٠٠ واقترح عليك ان تقوم برحلة لزيارة عائلة بيجوتى !

ـ هذه خير رحلة اقوم بهـــا ٠٠ انى احب ذلك كثيرا ٠٠

وهكذا ٠٠ ذهبت أولا الى كانتربرى لأودع آجنس وأباها مستر ويكفيلد ٠ **وقلت لها :**

ـ سأشعر بالحاجة اليك دائما ٠٠ ان اى شخص يحتاج عونك ، تكونين له خير عون ٠٠ ياآجنس !

فقالت آجنس :

ـ انى طيبة مع الجميع ٠٠ والجميع طيبون معى ٠

وقلت لها وانا اشعر بمنتهى الود :

ـ كلما واجهت مشـــكلة ٠٠ أو اذا وقعـت فى الحب ٠٠ فسوف اخبرك ٠٠ اذا سمحت لى بذلك ٠٠

فقالت :

ـ ولكنك كنت تقول لى دائما ان امور حبك تسير على مايرام ٠٠

ـ أوه ٠٠ لقد كنت طفلا واحببت طفلة ٠٠ وانى اعجب لماذا لم تقعى حتى الآن فى الحب ٠٠ ؟!

ادارت آجنس عينيها خجلا ٠٠ ولكنها بعد لحظة ، نظرت الى باهتمام **وقالت لى :**

ـ هناك شىء اريد ان اسالك عنه ٠٠ الم تلاحظ حدوث اى تغيير طرا على أبى ٠٠ ؟!

وكنت بالفعل قد لاحظت حدوث عدة تغييرات ٠ فهززت رأســـى علامة على معرفة بعض الملاحظات ٠ **وسالتنى آجنس :**

ـ هل تستطيع ان تخبرنى بما لاحظت ٠٠ ؟

فقلت بصراحة :

ـ اعتقد انه يضـــر نفسه بالافــراط فى تنـــاول

الشراب .. لقد أصبحت يداه ترتعشان .. كما أنـه أصبح لايستطيع الحديث بوضوح .. وكذلك نظرات عينيه أصبحت وحشية وغير طبيعية .. وقد لاحظت انه عندما يكون فى أسوأ حالاته فان أحدا يستدعيه دائمـا لأداء بعض الأعمال ..

– تقصد يورياه هيب ؟

– نعم .. وكان مستر ويكفيلد يشعر عندئذ بأنه قد أصبح عاجزا عن أداء عمله .. وفى كل يوم كانت حالته تزداد سوءا .. وفى احدى المرات ، رأيته وقد أسند رأسه على المنضدة وكان يبكى مثل الأطفال !

وعندما نويت مواصلة الرحلة الى لندن ، ساعدنى يورياه هيب فى ربط صندوق سفرى .

وأخيرا .. وصلت الى لندن ..

وذهبت الى المسرح ذلك المساء .. وعدت الى الفندق الذى استأجرت غرفة فيه .. وبينما كنت فى طريقى الى تلك الغرفة ، دخل الى صالة الفندق رجـل

أعرفه جيدا ، برغم أنه لم يعرفنى لأول وهلة .. وعلى الفور فاض قلبى وامتلأ عقلى بالذكريات الحلوة التى كانت تربطنى فى الماضى بهذا الرجل . **فانطلقت اليـه وسألته مندهشا :**

– ستيرفورث ! .. ألا تريد أن تتحدث معى .. ؟!

وفى الحال تنبه سيرفورث **وقال :**

– من ؟ ! .. كوبرفيلد الصغير .. ؟!

– ياعزيزى سيرفورث .. كم أنا سعيد برؤيتك !

– وكم أنا أيضا سعيد برؤيتك .. ان أمى تعيش فى مكان قريب .. خارج لندن .

وتواعدنا على اللقاء للافطار صباح اليوم التالى . **وقال ستيرفورث عندما التقينا :**

– ما رأيك فى البقاء معى فى هاى جيت لمدة يوم أو يومين ؟ .. انى أحب ان أعرفك الى أمى .. فهى سيدة طيبة وشديدة الفخر بى .. وتتحدث عنى دائما .

فاغفر لها ذلك ·· وأنا على يقين بأنها ستسر كثيرا برؤيتك ·

وعلى هذا فقد ذهبنا الى هاى جيت بعد عصر ذلك اليوم ·· ووصلنا الى بيت قديم مبنى بالطوب ·· ورأيت سيدة عجوزا كانت تقف عند بابه ·· وعرفت انها أم ستيرفورد ·· وقابلتنى بترحاب ، وأدخلتنى الى غرفة المعيشة ·· حيث وجدت سيدة أخرى سوداء الشعر والعينين ، وعلى خدها علامة تبدو كما لو كانت اثرا لجرح قديم ·· وكان اسم هذه السيدة مس دارتل ·· ولكن ستيرفورث وأمه كانا يدعوانها روزا ··

وعندما أصبحنا وحدنا ·· توقعت ان يحدثنى ستيرفورث عن مس دارتل ·· ولكنه لم يقل شيئا ·· فسألته :

– انها تبدو ذكية ·· أليس كذلك ؟

فقال على الفور :

– ذكية ؟ ·· انها تزداد صرامة عاما وراء عام ·· انها متطرفة فى كل شىء ·

– وهذه العلامة الغريبة التى تبدو فى وجهها ·· ؟!

– الحقيقة ·· أنى كنت السبب فى تلك العلامة

– هل كان ذلك نتيجة لحادث ؟

– كنت عندئذ طفلا صغيرة ·· وأغضبتنى فقذفتها بمطرقة ··

– انى آسف ·· لانى تسببت فى هذا الحديث المؤلم ··

فقال ستيرفورث :

– لقد حملت هذه العلامة على وجهها منذ ذلك الزمن ·· وستظل تحملها حتى تذهب الى قبرها ·· !

– انى لاأشك فى أنها تحبك كأخ لها ··

أما مسز ستيرفورث فقد كانت تحب ابنها حبا جما ·· وتبدو وكأنها لاتفكر فى أى شىء آخر أو لاتتحدث عن أى شىء آخر سواه ·· فقد أرتنى جميع صوره ·· منذ أن كان طفلا صغيرا ·· وحين كان

صبيا يافعا أيام عرفته لأول مرة فى مدرسة مستر كريكل ··

وكانت تحتفظ بجميع الخطابات التى أرسلها لها منذ سنوات بعيدة وحتى وقت قريب ·· وكانت تريد أن تقرأ لى كل هذه الخطابات لولا أن منعها ستيرفورث من الشروع فى ذلك ·

وعندما صعدت الى غرفة نومى ·· لاحظت وجود صورة لمس دارتل موضوعة فوق رف المدفأة ·· وكانت تبدو كما لو انها تمعن النظر الى بعينيها السوداوين ·· وتلقى الى باسئلة شتى ··

وكان هناك خادم هادىء جدا اسمه ليتيمر يبدو كما لو كان قوقعة أغلقت الصدفة على نفسها ·· وكان يحضر الى حجرتى كل صباح ليسألنى سؤالا واحدا لايتغير :

ـ ان مستر ستيرفورث يحب أن يعرف هل قضيت وقتا مريحا ·· ؟

وكنت أقول له :

ـ شكرا لك ·· أنا بخير ·· وكيف حال مستر ستيرفورث ·· ؟

وكان يقول :

ـ بخير ·· هل يمكننى أن أقوم بأية خدمة لك ياسيدى ؟

ـ لا ·· أشكرك ··

ـ شكرا لك ياسيدى ··

ثم ينصرف بهدوء شديد ويخرج من الحجرة ··

٢٢ ـ ستيرفورث يزور عائلة بيجوتى

أصر ستيرفورث على أن يصاحبنى فى رحلتى الى يارماوث لزيارة عائلة بيجوتى · وعندما وصلنا الى تلك البلدة ، وعدته أن نذهب سويا لزيارة العــائلة فى المساء ، واستأذنت منه لفترة ، ذهبت فيها وحـــدى لزيارة بيت مستر باركيس · وهناك شاهدت بيجوتى وكانت منهمكة فى اعداد وطهى طعام العشاء · سألتها :

ـ هل مستر باركيس موجود بالبيت ·· ؟

فاجابت دون أن يبدو عليها انها عرفتنى :

ـ نعم ·· هو بالبيت ·· ولكنه يرقد على سريره مريضا !

ولكنها تنبهت بعد ذلك الى وجودى · فخطت خطوة الى الوراء **وصاحت فى لهفة :**

ـ أوه ·· يابنى العزيز !!

وفى لمح البصر كان كل منا بين أحضان الآخر ··

ثم صعدت الى حجرة النوم بالطابق العلوى ·· وفرح باركيس بحضورى لزيارته ··

كان راقدا على ظهره فوق السرير ولا يتحرك الا بصعوبة شديدة · ولكنه كان قادرا على الكلام بشكل متواصل · وبينما كان يحدثنى ، جمع كل قواه ، وأمسك بعصا كانت مسنودة الى جانب السرير ، ثم مدها الى تحت السرير ليتحسس بها صندوقا كان موضوعا فى ذلك المكان · وبعد أن تأكد من وجــود الصـــندوق فى مكانه ، فاض وجهه بالبشر والفرح · **وقال لى :**

ـ ملابس قديمة ·· ليس فى هذا الصندوق سو

بعض الملابس القديمة .. كنت أتمنى أن يكون مملوءا بالنقود .. !

– وأنا أيضا أتمنى لك نفس الأمنية .

– شكرا .. ولكن ليس فيه الآن الا بعض الملابس القديمة .

وبعد أن غادرنا الغرفة ، شرحت لى بيجوتى كيف يحافظ باركيس على أمواله .. وأن أشد اللحظات ألما بالنسبة له ، تكون حين يحتاج البيت الى بعض النقود . فيضطر عندئذ الى فتح الصندوق لاخراج النقود المطلوبة ، وقلبه يكاد أن ينفطر حزنا وألما .. !

وبعد العصر ، قابلت ستيرفورث وصحبته معى لزيارة بيت مستر بيجوتى . واستقبلنا الجميع بفرح وسرور بالغ . وكان أكثرهم فرحا مستر بيجوتى الذى صاح بى قائلا :

– هذا شىء مدهش .. مصادفة سعيدة أن تحضر لزيارتنا هذه الليلة بالذات .. فهذه الليلة دون كل

الليالى ، هى أسعد ليالينا كلها .. فقد طلب هام من اميلى الصغيرة أن تتزوجه !!

دق قلبى بشدة حين كنت أسمع هذه الأخبار .. وحين رأيت السرور باديا على وجه هام بعد أن فاز بتلك المخلوقة الصغيرة الجميلة .. وأحسست بغصة مؤلمة فى قلبى بعد أن تبين لى أنى مازلت أحب اميلى الصغيرة .. ولكن كل أمل فى هذا الحب قد تبدد فى لحظة خاطفة .

لزمت الصمت تماما ، ولم أعرف ماذا أقول فى تلك المناسبة الحافلة بالمشاعر .. ولكن ستيرفورث قال الكلمات الصحيحة التى يجب أن تقال فى مثل تلك المناسبات :

– مستر بيجوتى .. انك رجل طيب ولك كل الحق فى أن تكون سعيدا كل هذه السعادة فى هذه الليلة .. أما أنت ياهام .. فانى اتمنى لك السعادة والفرح ..

وجلسنا جميعا حول نار المدفأة .. وأخذ

ستيرفورث يحدث اميلى الصغيرة عن المراكب والصيادين والسمك .. ثم اخذ يحدث مستر بيجوتى عن الفترة التى قضيناها سويا فى مدرسة سالم هاوس .

وطوال هذه الأحاديث ، كانت اميلى الصغيرة تنظر الى ستيرفورث باهتمام ، وتنصت بامعان الى كل كلمة قالها .. لقد ثبتت عينيها عليه وكأنها لم تكن ترى أحدا سواه !

وامتدت بنا السهرة الى قرب منتصف الليل .. وقبل أن ننصرف . تهيأ الجميع لتوديعنا عند باب البيت .. ثم ظلوا يراقبوننا حتى تلاشى منظرنا فى ظلام الطريق .

ووضع ستيرفورث ذراعه فى ذراعى وسرنا .. **وبعد لحظة قال ستيرفورث :**

– كم هى جميلة تلك البنت الصغيرة .. انهم ناس مدهشون .. يعيشون فى مكان غريب وبيت غريب .. انى سعيد بتعرفى واختلاطى بمثل هؤلاء

الناس .. ومن حسن حظنا أننا وصلنا اليهم فى ليلة تتألق فيها سعادتهم .. ولكنى لاحظت ان هام لا يثير اهتمام الفتاة .. واعتقد انها غير فرحة به .. أليس كذلك .. ؟!

ادهشنى سماع تلك الكلمات .. ولكنى لاحظت أن ستيرفورث يضحك بعد ان قال كلماته .. **فقلت له وانا أحاول أن أتجاوز تلك الدهشة :**

– ستيرفورث .. انى أعرفك جيدا .. انك تحاول أن تخفى طيبتك وراء الضحك .. وأنا سعيد لأنك تعرفت على هؤلاء الناس البسطاء وهم يعيشون أسعد أوقاتهم .. !

٢٣ ــ فى يارماوث

قضينا أنا وستيرفورث نحو ثلاثة أسابيع فى تلك المنطقة · وفى بعض الأحيان كنا نخرج الى البحر مع مستر بيجوتى فى مركبه · ولكنى لم أكن أرى ستيرفورث كثيرا · فد كنت أذهب فى أغلب الأوقات لزيارة الأماكن القديمة والأصدقاء القدامى الذين كنت أعرفهم جيدا وكانت تربطنى بهم ذكريات ماضية ·

ذهبت لزيارة بيتنا القديم ·· لقد جفت الحديقة ولم يعد يعتنى بها أحد . وتساقطت الكثير من أشجارها أو اجتثت !

وفى احدى المرات عدت متأخرا أكثر من المعتاد الى بيت مستر بيجوتى ، فلاحظت أن ستيرفورث كان لم يزل جالسا أمام المدفأة ومستغرقا فى تفكير عميق · فتقدمت اليه ووضعت يدى على كتفه ، **فهب واقفا وقال وقد اخذته المفاجأة :**

ــ اوه ·· لقد جئت كما يأتى الشبح !

فقلت له :

ــ أرى أنى اخرجتك من أحلام كنت مستغرقا فيها ·

فقال بنبرة لاتخلو من حزن :

ــ كنت اتخيل فى لهيب النار صورا تكاد أن تكون حية ·· كنت أفكر فى أن كل الناس الذين نراهم الآن سعداء ·· سيأتى يوم يتفرقون فيه أو يموتون ·· كنت اتمنى وأنا جالس وحدى هكذا لو كان لى أب حكيم ينصحنى أو يرشدنى خلال العشرين عاما الماضية ·· ولكن على أن انصح نفسى بنفسى ·· وكم اتمنى أن أنجح فى ذلك !

لقد اندهشت لحزنه · وسألته السبب فى تلك الحالة ، ولكنه أخذ يضحك وهو يأخذ بذراعى ويهم باصطحابى الى خارج البيت · وقال :

ـ أبدا ·· لاشىء ·· لاشىء بالمرة !

ومرت لحظة ثم قال مواصلا الحديث :

ـ هل تعلم أنى اشتريت قاربا سأقوم بتشغيله فى هذه المنطقة ·· ؟!

فصحت مندهشا :

ـ يالك من شخص غريب يا ستيرفورث ·· لماذا فعلت ذلك ·· وربما لاترغب فى زيارة هذه المنطقة مرة أخرى ؟ !

فقال على الفور :

ـ لا ·· صدقنى ·· لقد أحببت المكان ·· واشتريت القارب لأظل بهذه المنطقة ·· وسيقوم مستر بيجوتى بالعناية به وتشغيله فى الفترات التى

لا اكون فيهآ هنا ·· ولابد ان أعيد طلاء القارب ·· وسأكلف ليتيمر أن يقوم بهذا العمل ·· هل تعلم بأنه جاء الى هنا ·· ؟

ـ لا ··

ـ لقد وصل هذا الصباح ·· ان القارب اسمه الآن « طائر العاصفة » ·· وسوف أطلق عليه اسما جديدا ··

ـ ماذا تنوى أن تسميه ·· ؟

ـ سأسميه « اميلى الصغيرة » ·· !!

ـ ولكن ·· أين ذهبوا جميعا ·· انى لا أرى أحدا منهم فى البيت ·· ؟!

فقال ستيرفورث فجأة :

ـ هاهم ·· انظر هناك ·· لقد عادت اميلى الصغيرة « الأصلية » ·· ومعها هام ··

وعندما رأت اميلى الصغيرة ستيرفورث عن بعد ،

انزلت ذراعها من ذراع هام .. وسارت وحدها وظهر عليها شيء من الاضطراب .

وفجأة ظهرت سيدة شابة .. كانت تبدو وكأنها تتبع خطوات اميلى وهام .. وكانت ترتدى ملابس رثة فقيرة ، وتظهر فى وجهها ملامح حزينة . **فقال ستيرفورث :**

– انى مندهش .. من هى هذه المرأة ذات الظل الأسود .. ولماذا تتبع خطوات الفتاة .. ماذا يعنى هذا .. ومن أين جاءت هذه المرأة .. ؟ !

وكنا قد وصلنا الى الحانة ، **فدخلنا** وتناولنا طعام عشائنا .. وبعد أن انتهينا من ذلك . **وصل ليتيمر وقال :**

– لقد وصلت مس ماوشير الى هنا .. **فتساءل ستيرفورث :**

– وماذا تفعل هنا ..

فأجاب ليتيمر :

– يبدو أنها تعمل فى هذه المنطقة أيضا .

وفتح باب الحانة ، ودخلت امرأة ضئيلة الجسم ، فى حوالى الأربعين أو الخامسة والأربعين من عمرها .. فاستدعاها ستيرفورث لكى تقص له شعره . فهى حلاقة تمتهن حرفة العناية بشعر الرجال والسيدات وكانت تحمل حقيبة أخرجت منها مجموعة من الزجاجات وعدة أشياء أخرى ، وشرعت على الفور فى عملها .. ولكنها لم تتوقف عن الحديث لحظة واحدة .. وأخذت تحكى قصصا وأخبارا عن جميع السيدات الجميلات من زبائنها . **ولكنها قالت :**

– آه .. يبدو انى لن أجد عملا هنا .. فلم أر أية سيدة جميلة منذ أن وصلت الى هنا ..

فقال ستيرفورث :

– اعتقد ان باستطاعتنا أن نريها أحدى الجميلات اللاتى يعشن فى هذه المنطقة .

فقلت مصدقا على قوله :

– نعم .. انها شابة جميلة .. اسمها اميلى .. يامس ماوشير .

فقالت الحلاقة :

ـ آهاه !

ولم استرح الى منظر هذه الحلاقة ولا الى طريقتها فى الكلام · ولذلك فقد قلت بنغمة أكثر جدية :

ـ انها حقا جميلة ، ولكنها طيبة أيضا ·· ولقد وعدت بالزواج شخصا من مستواها ويناسبها تماما ·· اسمه هام ·

فقالت مس ماوشير :

ـ اوه ·· حقا ·· هذا شىء رائع !

وجمعت الحلاقة زجاجاتها وأدواتها ووضعتها فى الحقيبة ·· واعطاها ستيرفورث أجرها ·· ثم انصرفت وهى تواصل الكلام حتى آخر لحظة ·

وذهبت بعد ذلك الى بيت مستر باركيس ·· واندهشت عندما رأيت هام يتمشى جيئة وذهابا خارج البيت · وقال عندما رآنى :

ـ ان اميلى بداخل البيت ·· انها تتحدث مع انسانة كانت تعرفها فى الماضى ·· ولا يجب أن تعرفها

الآن ·· امرأة مسكينة يامستر دافيد··والناس فى هذه المدينة الصغيرة لايعرفون عنها شيئا ··

ـ لقد رأيت هذه المرأة ·· وكانت تتبع خطواتكما ·

ـ اوه ·· نعم ·· لقد وقفت تحت نافذة اميلى ونادت عليها : اميلى ·· اميلى ·· اشفقى على ·· لقد كنا زميلتين نعيش سويا نفس الحياة ! ·· فطلت اميلى من النافذة وقالت : من ·· أهذه أنت يامارتا ؟· لقد كانت اميلى تعمل مع مارتا هذه فى متجر مستر أومار ·· ورتبت اميلى أن تلتقى مع مارتا هنا ·· فى هذا البيت ·

وانفتح باب البيت وظهرت بيجوتى ·· واستدعت هام لدخول ·· وكانت تبكى ·· وكذلك كانت تفعل اميلى ·· وقالت لهام :

ـ انها تريد الذهاب الى لندن ··

فأعطاها هام بعض النقود ·· وهبت مارتا واقفة · وكانت تحاول أن تتكلم بشىء ·· ولكنها لم تفعل ولم تستطع ·· وانصرفت وهى تبكى ··

٢٤ ـ حفلة مرحة

رتبت عمتى أمر تدريبى على أعمال المحاماة لدى مكتب « سنبلو وجوركينز » بلندن ·· ودفعت للمكتب أجر تعليمى هذا العمل ·

وهكذا أصبحت أعيش فى شقة مستقلةتقعبمبنىمجاور للمكتب ·· وكم هو جميل أن يشعر الانسان انه يعيش فى مكان مستقل لايشاركه فيه أحد ·· ولكن وبالرغم من ذلك فقد كنت أشعر كثيرا بقسوة الوحدة ··

وذات صباح فوجئت بحضور ستيرفورث · فصحت فيه مرحبا :

– ياعزيزى ستيرفورث ·· كنت أظن أنى لن أراك أبدا ·· هل تبقى لتتناول الافطار معى ·· ؟

– لا لا ·· لا استطيع ·· فأنا على موعـد مع بعض الاصدقاء ·

– ستحضر اذن لتتناول معى طعام العشاء ؟!

– لا أستطيع ·· فلا بد أن اقضى الليلة مع اثنين من أصدقائى ··

– ولماذا لاتدعو صديقيك لنتناول العشاء جميعا هنا ·· ؟!

فوافق ··

وهكذا أعددنا حفلة عشاء مرحة ، تناولنا فيهـا الكثير من النبيذ ·· وأفرطت فى الشراب حتى أصبحت أكثر مرحا وابتهاجا ·· والقيت خطبة ·· كما القى ستيرفورث خطبة أخرى ·· ثم شربنا نخب الجميع فردا فردا ··

ثم توجهنا جميعا الى المسرح ·· وهنـــاك رايت آجنس ·· وعندما التقت عيوننا ، لاحظت ملامح الحزن والدهشة تتبدى واضحة على وجهها · ومع ذلك فقـد صحت مهللا :

– آجنس ·· آجنس ·· هذا شىء عظيم أن أرى آجنس !!

فقالت على الفور محاولة اسكاتى :

– الصمت ·· لاتصـــنع كل هذه الضـــجة ·· !

فصحت مندهشا :

– آجنس ·· ؟ !!

فقالت بصوت منخفض :

– انك فى حالة غير طيبة ·· اسمع ·· ان عليك أن تنصرف الآن ·· !

فقلت بصوت غبى :

– انصرف الآن ·· لماذا ؟ !

قالت بحزم :

– اسمع ·· انى اعرف انك ستطيعنى ·· عليـك ان تنصرف الآن ·· اطلب من أصدقائك أن يصحبوك الى بيتك ·

وفى صباح اليوم التالى ، وبينما كنت اتأهـــب للخروج من البيت ، تلقيت رسالة من آجنس :

« عزيزى ترتوود ·

انى اقيم مع مستر ومسز ووتربروك ، فى ايلنـــج بليس ، هولبورن ·· هل تأتى لزيارتى اليوم ؟ »

وكتبت خمسا أو ست اجابات على تلك الرسالة ·· محاولا الاعتذار وابداء الأسف على ماحدث منى ليلة الأمس بالمسرح ·· وأخيرا كتبت :

« عزيزتى آجنس ·

سأحضر فى الساعة الرابعة بعد الظهر » ·

وفى الســـاعة الرابعة تماما ، دخلت الى حجرة

الاستقبال حيث كانت آجنس جالسة فى هدوء وفى حالة طيبة . **فبادرتها باعتذارى وأسفى :**

- كنت أتمنى ألا ترينى فى الحالة التى كنت بها ليلة الأمس .. أنت دون كل الناس ..

فوضعت يدها على ذراعى وقالت :

- اجلس .. ولاتكن تعيسا هكذا .. اذا كنت لاتثق بى ، فمن ذا الذى ستثق به اذن .. ؟!

- أوه يا آجنس .. أنت خير أصدقائى !

- اذا كنت خير اصدقائك حقا ياتروود .. فهناك شىء أريد أن تتنبه اليه جيدا .. أريد أن أحذرك من الد واسوأ أعدائك .. اقصد ستيرفورث .. فان له تأثيرا عليك فى غاية السوء .. !

فقلت لها مندهشا :

- ياعزيزتى آجنس .. انك تظلمينه بمثل هذا الظن .. فليس من العدل أن تحكمى عليه بهذا الحكم بسبب ماحدث ليلة الأمس ..

- ليس لهذا السبب وحده .. بل هناك أسباب أخرى غير ذلك ..

ثم صمتت لحظة وقالت :

- يجب الا تنسنى .. يجب ألا تنسى أنك وعدتنى بأنك سوف تخبرنى اذا وقعت فى مشكلة أو وقعت فى الحب .. !

ثم سالتنى ان كنت قد رأيت يورياه **وهى تقول فى نفس الوقت :**

- انى متأكدة من انه سيصبح شريكا لأبى فى المكتب !

فصحت مندهشا :

- ماذا ؟ ! .. هل سيصبح هذا الشخص شريكا لأبيك فى مكتبه .. ؟ !

فقالت آجنس :

- نعم .. وأنا أخشى ان يكون ذلك على غير رغبة أبى .. لقد أصبح أبى يخاف منه .. انه قد سيطر على

أبى تماما ‥ لقد بدأ أبى يفقد اهتمامه بالعمل رويدا رويدا ‥ وأصبح لا يهتم الا بى أنا وحدى ‥ حتى أصبحت أحس بأننى السبب فيما لحقه من فشل فى عمله ‥

وبعد ذلك بعدة أيام دعيت لحضـــــــور حفلة فى وتربروكس ‥ وقابلت يورياه هناك ‥ وظل ملازما لى منذ بداية الحفلة حتى نهايتها وحتى انصـــــرفت ٠ وكانت آجنس قد طلبت منى أن أكون لطيفا معه ٠ ولذلك فقد صحبته الى شقتى ، حيث قدمت اليه بعض القهوة ٠

وقال يورياه بطريقته المعروفة :

ـ اوه يا مستر كوبرفيلد ‥ أراك تقوم بخدمتى وتقديم القهوة الى بنفسك ‥ ان هذا أكثر مما أتوقعه ٠ ولكن على أية حال فقد حدثت أشياء كثيرة لم أكـن أتوقعها ‥ انى أتمنى أن أكون قادرا على معاونة مستر ويكفيلد ‥ لقد أصبح غير عاقل بالمرة ‥ ولو كان هناك شخص آخر غيرى يعمل مع مستر ويكفيلد خلال السنوات القليلة الماضية ، لكان قد سيطر عليه تماما ‥

وعندما كان يقول هذه الجملة الأخيرة ، أغلـق قبضة يده بقوة ، وكأنه كان يعصر شيئا بين أصابعه ‥ ولذلك فقد كرهته ‥

ثم عاود يورياه حديثه قائلا :

ـ ان مس آجنس كانت جميلة جدا هذه الليلة !

فقلت مصدقا على كلامه :

ـ انها تبدو هكذا دائما ‥ أنبل وأجمل من أية انسة أو سيدة تكون بجانبها أينما كانت !

فقال يورياه :

ـ شكرا لك !

فقلت له على الفور :

ـ ليس هناك سبب لتشكرنى على ذلك ٠

قال :

ـ هناك سر سأخبرك بـه ‥ فبالرغم من أنـى شخص متواضع وبسيط ‥ فانى أعشق التراب الذى تسير عليه عزيزتى آجنس !

وتمنيت لو أنى قتلته بعد أن قال هذه الكلمات ٠٠ ولكنه استمر فى حديثه :

ـ انها تحب أباها حبا جما ٠٠ ولأجل ذلك فانى أتوقع أن تستجيب لى وتعطف على ٠٠ !

وهكذا اكتشفت خطته ٠٠ فقد سيطر يورياه على مستر ويكفيلد تماما حتى يجبره على أن يعطيه آجنس زوجة له ٠٠ واستمر يورياه فى الحديث :

ـ ولكن لاداعى للعجلة فى هذا الأمـــر ٠٠ ان عزيزتى آجنس مازالت صغيرة ٠٠

وفى تلك الليلة نام يورياه على مقعد فى غرفـــة الجلوس بشقتى ٠٠ وحلمت بأن آجنس تتوسل الى لكى انقذها من هذا المصير ٠٠

وعندما استيقظت فى صباح اليوم التالى ، دخلت فورا الى غرفة الجلوس ٠ فرأيت يورياه مازال ممددا فوق المقعد ٠٠ تتدلى ساقاه على الأرض ٠٠ وفمـــه مفتوح عن أخره ٠٠

وكان بوسعى أن أقتله ٠٠ ! !

٢٥ ـ دورا ٠٠

فى كل يوم ، كنت اذهب الى مكتب مستر سبنلو للتدريب على العمل ٠ وبعد مضى بعض الوقت ، دعانى مستر سبنلو للذهاب معه الى بيته الريفى ٠ وعندما وصلنا سال مستر سبنلو احد الخدم :

ـ أين مس دورا ٠٠ ؟

فقلت فى نفسى :

ـ دورا ؟ ٠٠ ياله من اسم جميل !

وعندما دخلنا الى اقرب حجرة بالبيت ، قال لى مستر سبنلو :

– مستر كوبرفيلد ·· هذه هى ابنتى دورا ··

وما أن وقعت عينى عليها حتى أحببتها بجنون من أول نظرة ·· ! وأشار الى سيدة أخرى وقال :

– وهذه صديقه لابنتى ··

فقالت السيدة :

– انى أعرف مستر كوبرفيلد من قبل ·· !

كانت هذه السيدة هى مس مارد‌ستون !!

وفى صباح اليوم التالى ، استيقظت مبكرا وخرجت الى الحديقة · وهناك قابلت دورا · فقلت :

– لقد خرجت الى الحديقة مبكرة يامس سبنلو ··

فأجابت بنعومة :

– نعم ·· ففى صباح كل أحد ·· لا أواظب على تمريناتى الموسيقية ·· ان الصباح هو أشرق أوقات اليوم ··

فقلت :

– وهذا الصباح هو أشرق الأوقات كلها ·· بالنسبة لى !

ومن أحد ممرات الحديقة ·· جاء كلب صغير يجرى نحو دورا ·· فرفعته بيديها وضمته الى صدرها ·· فقلت فى نفسى : كم هو محظوظ هذا الكلب !

ومضى النهار كله جميلا هادئا ·· حيث خرجنا جميعا للنزهة ·· وفى فترة المساء جلسنا فى حجرة المعيشة نقرأ فى بعض الكتب ونشاهد بعض الصور ·· وقبل أن أتوجه لحجرة النوم ألقيت تحية المساء على مستر سبنلو وقلت له : تصبح على خير ··

ولم يعرف مستر سبنلو آنئذ ، انى أصبحت أنظر اليه باعتباره والدا لزوجتى مستقبلا ·· !!

٢٦ ـ ستيرفورث يعود

عـدت الى شـقتى بلندن ٠٠ وجاء مستر ومسـز ميكاوبر لتناول العشاء معى ٠٠ وكانت حفلة ممتعة بهيجة ٠ وكنت قد قابلت « ترادلز » صـــديق طفولتى وزميلى فى مدرسة سالم هاوس ٠ فدعوته للحضور الى تلك الحفلة فلبى الدعوة وأزدادت بهجتنا ٠٠ وفجأة دق الباب ٠٠ ودخل ليتيمر خادم ستيرفورث ٠ **فسألته مندهشا :**

ـ ما الأمر ٠٠ ماذا حصل ؟

فأجاب بهدوئه المعتاد :

ـ عفوك ياسيدى ٠٠ لقد أمرت بأن أحضر الى هنا ٠٠

ـ وهل سيدك هنا ٠٠ ؟

ـ لا يا سيدى ٠٠

ـ هل رأيته هنا ٠٠ ؟

ـ عفوك ياسيدى !

ـ هل سيحضر مستر ستيرفورث من أكسفورد ؟

فتحاشى الاجابة على سؤالى وقال :

ـ أظن انه سيحضر الى هنا غدا ٠٠

فسألته محاولا معرفة المزيد بوضوح :

ـ ليتيمر ٠٠ هل بقيت طويلا فى يارماوث ؟

ـ لتيمر ٠٠هل بقيت طويلا فى يارماوث ؟

ـ لا ياسيدى ٠٠ ليس طويلا جدا ٠٠

ـ وهل انتهيت من اعداد القارب الذى اشتراه مستر ستيرفورث ؟

ـ نعم يا سيدى ٠٠

ـ وهل رأى مستر ستيرفورث القارب بعد اعداده ؟

ـ لا استطيع أن اقول ياسيدى ٠٠ تصبحوا جميعا على خير !

وانصرف ٠٠ وارتحنا جميعا لانصرافه ٠٠ ولم اعد اثق فى هذا الرجل ٠

وبعد ان انتهت الحفلة وانفض الجمع ٠٠ جلست وحيدا بجوار المدفاة وانا افكر فى أمر مستر ومسز ميكاوبر ٠٠ وفجاة سمعت وقع خطوات صاعدة على السلم ٠٠ وظننت فى البداية أن القادم هو ترادلز ٠٠ ولكنى تبينت بعد ذلك انه ستيرفورث ، الذى قال فور ان رآنى :

ـ اراك عدت الى عمل الحفلات من جديد ٠٠ لقد

رأيت ضيوفك وهم يتحدثون بصوتمرتفع عن كرمك وفضلك ويثنون عليك ٠٠

وقدمت اليه بعض الطعام ٠٠ فجلس الى المائدة وهو يقول :

ـ هاهو عشاء يليق بملك ٠٠ !

ثم أضاف بعد لحظة :

ـ لقد جئت قادما من يارماوث ٠٠

ـ ظننتك قادما من اكسفورد ٠٠

فقال وهو يواصل تناول الطعام :

ـ لا ٠٠ لقد استخدمت القارب الذى اشتريته ٠٠ على فكرة ٠٠ معى خطاب مرسل اليك ٠٠ ان مستر باركيس العجوز مريض جدا ٠٠

وناولنى الخطاب ، فقرأته على الفور ٠ وقلت :

ـ اعتقد ان من الضرورى أن أذهب لأراهم !

وعندما تهيأ ستيرفورث للانصراف قلت له مودعا

ـ تصبح على خير ياعزيزى ستيرفورث ·· انى ذاهب لرؤيتهم غدا ·

ووضع كلتا يديه فوق كتفى وقال قبل ان ينصرف :

ـ تصبح على خير ·· ولكن اذا حصل اى شىء يفرقنا ·· فأرجو أن تفكر فى حسناتى دون سيئاتى !

فقلت له :

ـ كلك حسنات بالنسبة لى ··

فقال :

ـ ليباركك الله ·· وتصبح على خير ·· !

٢٧ ـ باركيس يذهب مع الموج ··

وصلت الى يارماوث ·· وتلقتنى بيجوتى بين ذراعيها ، شاكرة لى حضورى لزيارتها فى هذا الوقت العصيب ·· وشكرتنى على ذلك مرات ومرات ·· وقالت ان مجرد حضورى قد سبب لها الكثير من الراحة والسكينة ·· وأن مستر باركيس يشعر نحوى بكثير من الحب والتقدير ، وانه يتحدث عنى دائما بكلام طيب ·· وقالت ايضا انه الآن مستغرق فى النوم ، ولكنه عندما يستيقظ ويرانى سيسعد كثيرا وتعود اليه بهجته ··

ولكن بدا واضحا انه لايوجد شيء فى الدنيا يمكن أن يعيد البهجة الى مستر باركيس ·· لقد كان فى دور الاحتضار ·· يرقد غائبا عن الوعى وقد أسند رأسه وكتفيه على مقعد بجانب السرير ، بينما بقية جسمه ممددة فى ضعف على السرير ، وعلى المقعد كانت ذراعاه تحيطان بصندوقه العتيد الذى كان يقول دائما أن محتوياته مجرد « ملابس قديمة » ··

لقد أصبح الآن ضعيفا غير قادر على الحركة ·· أصبح عاجزا عن الامساك بالعصا التى كان يتحسس بها صندوقه العتيد الموضوع تحت سريره ، لذلك فقد طلب منهم ان يضعوا الصندوق على ذلك المقعد الملاصق للسرير حتى يصبح أقرب مايكون اليه ··

وها هو ذا راقد على السرير يحتضر فى هدوء ·· ويحاول أن يحتضن صندوقه فى يأس وبلا عافية ·· والحياة تتسلل فى بطء خارجة من جسده الواهن الضعيف ·· وكانت آخر كلماته التى سمعناها بوضوح « مجرد ملابس قديمة » ·· !

وقالت بيجوتى بصوت حزين :

ـ باركيس ·· ياعزيزى ·· هاهو مستر دافيد قد جاء ليراك ·· باركيس ·· هل تريد أن تتحدث اليه ·· ؟!

ولكن الصمت العميق كان يلفه ·· وجاهد بآخر انفاسه لكى يقول شيئا ·· ونطق بالفعل بقليل من الكلمات المتقطعة غير الموصولة ·· عن ذكرى قيادته للعربة عندما كان يأخذنى الى المدرسة ··

وفجأة فتح عينيه ·· والتفت نحوى ·· وأضاء وجهه بابتسامة راضية وقال فى وهن وبصوت ضعيف لايكاد يسمع :

ـ « باركيس مستعد » ·· !!

وكما تزحف الموجة على رمال الشاطىء ، ثم تنسحب عائدة الى أعماق البحر ·· ذهب باركيس مع الموج ·· ولكن بلا عودة ·· !

٢٨ ـ هروب اميلى

كان المطر ينهمر بشدة حين كنت متوجها نحو بيت عائلة بيجوتى ·· وكان القمر مختفيا وراء السحب ·· ورأيت ضوءا يتسلل من احدى نوافذ البيت ·· وطرقت الباب ··

كان مستر بيجوتى جالسا بجوار المدفأة يدخن غليونه ·· وكانت بيجوتى جالسة بجواره تخيط بعض الملابس ·· اما مسز جاميدج فقد كانت جالسة فى صمت فى ركن من الغرفة ·

قلت موجها الحديث الى بيجوتى :

ـ والآن ياعزيزتى ·· كيف حالك ؟ !

فقال مستر بيجوتى كما لو كان يحرص على الاجابة بدلا من أخته :

ـ لقد تقبلت الامر ببساطة ·· لقد أدت واجبها نحو باركيس ·· كما أن باركيس قد أدى واجبه نحوها · والأحوال على مايرام ·· !!

ثم قام ·· وأحضر شمعة أشعلها ووضعها خلف زجاج النافذة · وقال بصوت ملؤه الصدق :

ـ انى أشعل هذه الشمعة كل مساء لترشد صغيرتنا اميلى حين تعود من عملها الى البيت ·· وسأظل أشعل شمعة كل يوم فى مثل هذا الوقت حتى بعد أن تتزوج اميلى من هام ويصبح لهما بيت مستقل · سأشعل الشمعة كل مساء وسأجلس هنا بجوار المدفأة واتظاهر بأنى انتظر قدومها ·· تماما مثلما أفعل الآن · فكلما أرى هذه الشمعة مضاءة خلف الزجاج ·· أقول لنفسى ان اميلى ترى نورها وهى عائدة الى البيت ··

ولكى أثبت لك قولى أنظر الآن ·· ها هى اميلى قد وصلت ·· !

ولكن الذى وصل ، كان هام وحده ··

فسأله مستر بيجوتى مستفسرا :

ـ هام ·· أين اميلى ؟ !

فعمل هام حركة برأسه ·· كما لو كان يريد أن يقول انها بالخارج ·· **ثم تقدم هام الى وقال :**

ـ مستر دافيد ·· هل تسمح بالخروج معى دقيقة واحدة لترى ماذا احضرنا لك أنا واميلى ·· ؟!

وعندما خرجت معه من باب البيت ·· لاحظت أن وجهه شاحب شديد البياض ·· وأسرع بغلق البـاب وانفجر فى البكاء **فسألته ملتاعا :**

ـ هام ·· ماذا حدث ؟ !

وارتفع بكاؤه أكثر وأكثر وهو يقول :

ـ مستر دافيد ·· مستر دافيد !

ـ هام ·· أيها الصديق المسكين ·· أخبرنى ماذا حدث !

عندئذ تحامل على نفسه وقال فى يأس :

ـ حبى يامستر دافيد ·· عروسى التى كانت أملا لقلبى ·· اميلى الصغيرة ·· لقد هربت !!

ـ هربت ·· ؟!

ـ نعم يامستر دافيد ·· هربت ·· احبرنى بالله عليك ·· ماذا أقول لهم ·· ماذا أقول للناس ·· ؟!

وهنا فتح الباب وخرج الينا مستر بيجوتى ·· ولن أنسى ما حييت ذلك الشحوب الذى بان على وجهه ·· ولا منظره حين أخذ يصيح ويهدد جميع النساء ·· '

وقفت حائرا لا ادرى ماذا أقول أو ماذا أفعل ·· وكنت ممسكا بيدى الرسالة التى اعطانى اياها هام حين كنا خارج البيت · وبعد فترة من الصـــــمت الحزين **قال هام :**

ـ اقرأ الرسالة ياسيدى ·

وبعد صمت يشبه الموت ·· **بدأت أقرأ ببطء :**

« عندما تقرأ يامن تحبنى كثيرا هذه الرسالة ·· سأكون قد ابتعدت بعيدا ·· ولن أعود الا اذا عاد هو بى بعد أن أصبح سيدة ··

قل لعمى انى لـم أكن أحبـه كثيرا ·· ومع ذلك أرجوك ان تعمل على راحته ·· وجرب حظك فى الحب مرة أخرى مع فتاة طيبة تكون صادقة معك ··

بارك الله فيكم جميعا ·· وانى اصلى من أجلكم راكعة على ركبتى ·· واذا لم يعد بى بعد أن أصبح سيدة ، فلن أصلى من أجل نفسى ·· وانما سوف أصلى للجميع » ··

وأبعد مستر بيجوتى عينيه عن وجهى كما لو كان قد أفاق من حلم رهيب · **ثم قال بصوت منخفض يبدو كالهمس :**

ـ من هو الرجل ؟ ·· أريد أن أعرف اسمه ·· '

فقال بصوت منكسر :

ـ انى لا ألومك يامستر دافيد ·· لأن الرجل اسمه ستيرفورث ·

وعلى الفور ارتدى مستر بيجوتى معطفه ، **وقال لهام :**

ـ اعطنى القبعة !

فسأله هام عما ينتوى ·· والى أين سيذهب ، **فقال باصرار :**

ـ سأذهب للبحث عن اميلى ·· ولكنى سأذهب أولا لأحطم ذلك القارب اللعين ·· وبعد ذلك سأذهب للبحث عنها ··

فسأله هام :

ـ أين ·· ؟

فاجاب بمزيد من الاصرار :

ـ فى اى مكان ·· وفى كل مكان فى هذا العالم ·· سوف أجدها ·· سوف أعيدها الى هنا ·· !

٢٩ ـ مستر بيجوتى ومسز ستيرفورث

فى صباح اليوم التالى عدت الى لندن ·· وصحبنى مستر بيجوتى بعد أن طلب منى أن أتوسط له لمقابلة مسز ستيرفورث « والدة ستيرفورث » · فتوجهت اليها طالبا السماح برؤية مستر بيجوتى ووصفته بأنه رجل طيب ولطيف ولديه مشكلة يريد أن يعرضها عليها · فسمحت له بالدخول ··

كانت مسز ستيرفورث جالسة على مقعد وثير ·· وكانت روزا دارتل واقفة خلفها ·· ونظرت الى مستر

بيجوتى ونظر مستر بيجوتى اليها ·· ثم اشارت اليه بالجلوس فقال معتذرا :

ـ لا ·· سأظل واقفا !

ثم اخرج من جيبه الرسالة التى تركتها اميلى وقدمها الى مسز ستيرفورث وقال لها :

ـ ارجوك أن تقرئى هذه الرسالة ياسيدتى !

وبعد أن قراتها سالها مستر بيجوتى وهو يشير الى جملة « بعد أن أصبح سيدة » :

ـ هل سيحفظ وعده ويتزوجها ·· ؟ !

فاجابت مسز ستيرفورث بحزم :

ـ لا ·· طبعا ·· !

فسالها مستر بيجوتى :

ـ لماذا ·· ؟

ـ لماذا ؟ ·· لانها اقل منه مقاما ··

- ولماذا لاترفعونها الى مقامكم .. ؟

- انها غير متعلمة .. ولم تذهب الى مدرسة ..

- علموهـا .. !

- انها من عائلة متواضعة وفقيرة جدا ..

- اسمعى ياسيدتى .. انت تعرفين بلا شك مـدى حبك لولدك .. ونحن أيضا نعرف مدى حبنا لأولادنا . ولكنك لاتعرفين كيف يكون حالك عندما تفقدين ولدك .. وأنا أعاهدك بأن نقطع صلتنا بها تماما ولن نراها أبدا بعد أن يتم الزواج ..

- هذا مستحيل .. ان مثل هذا الزواج سيدمر مستقبل ابنى .. وسيعرضه للافلاس والخراب .. ومع ذلك فيمكننى أن أعطيكم بعض .. ..

- تعطينا بعض النقود ؟! .. ان هذا سـيكون أسوأ مما فعله ابنك !

وهنا تغيرت ملامح مسز ستيرفورث وظهرت على وجهها معالم الغضب .. وفى الحال انحنت روزا دارتل

التى كانت تقف خلفها وهمست فى أذنها ببعض الكلمات ولكن يبدو انها لم تقبل ماهمست به روزا فى أذنها . **وقالت :**

- لا ياروزا .. لا !

وعندئذ قال مستر بيجوتى :

- لا ياسيدتى .. ليس هناك داع لأن تقلقى نفسك الى هذا الحد .. لقد جئـت الى هنا بدون أمـل .. وسأخرج من هنا بدون أمل مثلما جئت .. !

وخرج مستر بيجوتى وخرجت معه .. وتتبعتنا روزا دارتـل ، وسـحبتنى من ذراعى جانبا . **وقالت ووجهها يحمل كل مظاهر الغضب :**

- لماذا أحضرت هذا الرجل الى هنا ؟ .. ألا تعرف أن كلا من مسز ستيرفورث وابنها مجنون بالفخر بنفسه وبعائلته ؟ .. لماذا أحضرته الى هنا اذن ؟ .. لا هو ولا تلك الفتاة يساوى شيئا .. بودى لو أكوى وجـه

تلك الفتاة بالنار ·· ثم ألقيها فى الشارع ·· بودى لو أقتلها ·· !!

لقد رأيت أنواعا وأشكالا من الغضـــب تتبدى فى وجوه الناس ·· ولكنى لم أر فى حياتى غضبا عنيفا مثل غضبها ·· !

وعند لحقت بمستر بيجوتى ، كان يسير آنئذ ببطء هابطا من التل · فسألته :

– والآن ·· الى أين انت ذاهب ·· ؟

فأجـــاب بصـــوت منخفض ولكن فيه الكثير من الاصرار :

– سأذهب للبحث عنها ، مهما بعد بها المكان ·· واذا لحق بها أو بى أى سوء ·· فانى اشهدك على أن تتذكر أن آخر كلماتى عنها : ان حبى لها لم يتغير ·· وانى سامحتها ·· !

الجزء الخامس

الـــزواج

٣٠ ـ الخطبـة

اخبرنى مستر سـبنلو أن عيد ميلاد ابنته دورا سيكون الاسبوع القادم ·· وانه سيكون مسرورا لـو قبلت دعوته لحضور حفل عيد ميلادها فى بيتهم الريفى ·

وفى اليوم المحدد غادرت لندن فى الصباح الباكـر حتى أصل فى وقت مناسب · وعندمـا وصـلت الى البيت ، رأيت دورا واقفة فى الحديقة ، ومعها صديقة شابة اسمها مس جوليا ميلز ·· وكان كلبها الصغير جيب واقفا قرب قدميها ·

وطوال اليوم ، كان ذهنـى مشـغولا بشيء

واحد هو : دورا .. أرى صورتها فى أشعة الشمس المشرقة .. واسمع صوتها فى تغريد الطيور الجميلة .. !

جلسنا تحت الاشجار وتناولنا طعامنا .. ثم غنت دورا وشدت بصوتها العذب الرائع .. وتناولنا الشاى .. وقبل المغرب عدت الى البيت راكبا عربة .. وكانت دورا بجوارى .. !

وقبل أن أغادر البيت عائدا الى لندن ، انتحت بى مس جوليا ميلز جانبا وقالت لى :

ـ مستر كوبرفيلد .. أريد أن احدثك فى شىء .. ان دورا ستقيم عندنا بعض الوقت ضيفة علينا .. وأتمنى أن تحضر لزيارتنا !

وبعد أيام قليلة عزمت على زيارة مس جوليا ميلز فى بيتها حيث تقيم دورا .. وعزمت فى الوقت نفسه على عرض الزواج على دورا ..

وعندما وصلت كانت الاثنتان جالستين فى حجرة الاستقبال .. وبعد فترة استأذنت مس جوليا ميلز فى الخروج من الحجرة وتركتنا وحدنا ..

ولا أدرى حتى الآن كيف أخبرت دورا بحبى لها .. لقد فعلت ذلك فى لحظة خاطفة .. قلت لها انى سأموت بدونها .. !

٣ ـ الافــلاس

عدت من زيارة صديقى القديم ترادلز ·· وتوجهت الى الحجرة التى كنت أقيـــم فيها أنا وبيجوتـــى ·· وأصابتنى دهشة شديدة حينما رأيت الباب مفتوحـــا وسمعت اصواتا كثيرة بالداخل ··

وفوجئت بوجود عمتى ومعها مستر ديك ·· وكانت عمتى جالسة على بعض الصناديق ·· أما مستر ديك فقد كان ممسكا بطيارة ورقية كبيرة ··

صحت مرحبا :

ـ أهلا بعمتى العزيزة ·· هذا ســـرور لم أكن

أتوقعه ·· هل تذكرين ياعمتى هذه السيدة ·· انهـا بيجوتى ··

فقالت عمتى لبيجوتى :

ـ مرحبا بك ·· كيف حالك ؟

ثم التفتت الى قائلة :

ـ ليس من اللائق أن تدعوها باسمها القديم ·· لقد تزوجت وأصبح لها الآن اسم آخر ·· هو اســـم زوجها ··(١)

والتفتت عمتى الى بيجوتى **وسالتها :**

ـ ما اسمك الآن ·· ؟

فقالت بيجوتى :

ـ باركيس ·

---

(١) من المـألوف فى انجلترا أن تترك الزوجة اسم عائلتها وتتسمى باسم زوجها واسم عائلته .

وعندئذ قالت عمتي :

ـ هذا أفضل ٠٠ كيف حالك ياباركيس ٠٠ ؟!

وتناولنا الشاى ٠٠ ومن وقت لآخر كنت الاحظ أن عمتى تنظر الى بطريقة غريبة ٠٠ وتعجبت من ذلك ٠٠ فأنا لم اخبرها بعد بأى شىء عن دورا ٠٠ فهل كان هذا هو السبب ٠٠ ؟ !

وأخيرا قالت عمتي :

ـ تروت ٠٠ عليك أن تتمــــالك نفسك وتمســـك أعصابك وتسمعنى جيدا ٠

فقلت بلا تردد :

ـ حاضر ياعمتى ٠٠

ـ هل فكرت وسألت نفسك لماذا انا جالسة هكذا على هذه الصناديق ٠٠ ؟!

ـ لا ياعمتى ٠٠ ولا أعرف لماذا ٠٠

فقالت ببساطة وبوضوح :

ـ لأن هذه الصناديق هـــى كل ما أملك ٠٠ لقد افلست تماما يا عزيزى !

لو انى سمعت خبرا عن غرق البيت وغرق جميع من فيه ٠٠ لما اندهشت بمثل هذه الدهشة !

وواصلت عمتي حديثها :

ـ ديك يعرف ذلك أيضــا ٠٠ لقد أفلســـت ٠٠ واصبح كل ما أملكه فى هذا العالم موجودا فى هذه الغرفة ٠٠ باركيس ٠٠ هل يمكنك اعداد سرير لينام ديك ٠٠ أى شىء يكفى لهذا الغرض ٠٠

ووضعت عمتى ذراعها حول عنقى وقالت انهــا لا تأسف لشىء الا بالنســـبة لى وحدى ٠٠ ثم اخفت مشاعرها وقالت مشجعة :

ـ يجب ان نتحمل المصاعب ببسالة ٠٠ يجب الا ندع المصاعب تخيفنا أو تقلقنا ٠٠ لابد أن نشق حياتنا مهما اكتنفتها من متاعب وصعاب ٠٠ ياتروت !

٣٢ ـ لقاء مع آجنس

كان أول شيء صممت أن أفعله فى صباح اليوم التالى ، هو اعفاء نفسى من العمل من مكتب « سبنلو وجوركينز » وآن استعيد منهما المبلغ الذى دفعته عمتى مقابل تدريبى . وجلست فى أحد أركان المكتب فى انتظار وصول مستر سبنلو ، وأفكر فى الوقت نفسه فى دورا ..

وعندما وصل مستر سبنلو ورآنى ، **حيانى قائلا :**

ـ كيف حالك ياكوبرفيلد .. انه صباح جميل .. أليس كذلك ؟ !

فقلت :

ـ نعم .. هو صباح جميل بالفعل .. هل يمكننى أن أتحدث معك قليلا قبل ذهابك الى المحكمة .. ؟

ـ طبعا .. لماذا ؟ .. تعال الى مكتبى ..

وتبعته الى حجرة مكتبه ، **وقلت له :**

ـ انى آسف لما سوف أقول .. لقد وصلتنى أخبار سيئة عن عمتى .. لقد أفلست وفقدت جميع أموالها .. ولذلك فأنا مضطر للانقطاع عن عملى بالمكتب ، وأرغب فى استرداد مادفعته عمتى من نقود مقابل تدريبى .

فقال مستر سبنلو آسفا :

ـ انى آسف لذلك .. ولكن ذلك غير ممكن .. فلو كنت وحدى لكان من الممكن أن أرتب ذلك .. ولكن هناك شريكى فى المكتب مستر جوركينز .

ـ اذن .. هل تعتقد أنى لو حادثت مستر جوركينز فى الأمر .. سيكون من الممكن تسوية هذا الموضوع ؟

– لا ‥ لا أعتقد أن مستر جوركينز سيوافق على شيء كهذا ‥

ومع ذلك ، صعدت الى مكتب مستر جوركينز فى الطابق العلوى · وشرحت له موضوعى وطلبى ‥ وفوجئت بقوله :

– اعتقد انك تحدثت فى هذا الموضوع مع مستر سبنلو ‥ ؟

– نعم تحدثت معه ‥ وقال انه من الممكن أن يوافق على هذا الطلب لولا أن ‥‥ ‥‥

– اذا كان مستر سبنلو لم يوافق فأنا أيضا لا استطيع أن أوافق ‥

– ولكنه قال ‥‥ ‥‥

– انى آسف ‥ مادام لم يوافق فأنا لا أوافق

ولم اكتشف حتى الآن من ذا الذى لم يوافق هل هو مستر سبنلو ‥ أو مستر جوركينز ؟ !

وبينما كنت أسير حائرا فى الشارع ، سمعت وقع عجلات عربة صغيرة قادمة من خلفى · وعندما اقتربت منى العربة ، رأيت وجها جميلا ‥ رأيت آجنس بنفسها · **فصحت مهللا :**

– آجنس ‥ عزيزتى آجنس ‥ ياله من سرور أن أراك هكذا فجاة ‥ الى أين تذهبين ‥ ؟ !

فقالت وهى تنزل من العربة تسير بجانبى :

– انى ذاهبة لزيارة عمتك ‥ انى لست وحدى هنا ‥ معى أبى ويورياه هيب ·

– يورياه هيب ؟ ‥ علية اللعنة ‥ هل اصبح شريكا لوالدك فى مكتبه ‥ ؟

– نعم ‥ ان له تاثيرا بالغا على أبى ‥ لقد حدث تغيير فى بيتنا اود أن أخبرك به ‥ ان يورياه وأمه يعيشان معنا الآن فى البيت ‥ وأسوأ ما فى هذا الأمر ، انى أصبحت لا استطيع أن انفرد بالجلوس مع

أبى وحدنا كما اعتدنا ·· فيورياه هيب أصبح يفصل بيننا ··

كانت عمتى جالسة وحدها عندما وصلنا ·· وحكت لها عمتى قصة مالحق بها من خسائر وكيف خسرت كل أموالها ·· ثم قالت فى النهاية :

– لا أدرى ماذا يجب أن نفعل الآن ·· فالكوخ لن يدر علينا أكثر من سبعين جنيها كل سنة ·· أما ديك فلديه مائة جنيه هى كل مدخراته ·· ولكنها تخصه وحده ·

فقالت آجنس :

– علمت ان الدكتور قد أغلق مدرسته ·· وجاء ليعيش هنا فى لندن ·· وهو يبحث عن شخص يساعده فى اعداد كتابه الذى يؤلفه ·· واعتقد ان تروتوود يمكنه أن يلتحق بهذا العمل ··

فصحت فرحا :

– عزيزتى آجنس ·· انت أفضل أصدقائى !!

وقمت على الفور بكتابة رسالة الى الدكتور سترونج أطلب منه أن يأذن لى بمقابلته فى الساعة العاشرة من صباح الغد ·

أينما تكون آجنس ·· فانها تترك لمساتها الحلوة على كل شىء فى المكان الذى توجد فيه ·· فعندما عدت الى البيت ، رأيت الحجرة مرتبة منظمة ، ورأيت قفص الطيور الجميلة الخاصة بعمتى معلقا على النافذة ، ورأيت مقعدى موضوعا بجوار النافذة بالقرب من مقعد عمتى ·· وبينما كنت أتأمل هذه اللمسات الرقيقة ، سمعنا طرقا على الباب · وعندئذ قالت آجنس :

– اعتقد ان أبى قد وصل ·

قمت وفتحت الباب ·· ودخل مستر ويكفيلد ومعه يورياه هيب · وأدهشنى التغيير الكبير الذى لحق بمستر ويكفيلد ·· فقد علت وجهه حمرة غير صحية ، وازداد ارتعاش يديه ·· وفجعت بمنظره هذا ·· فقد تيقنت أن الرجل أوشك أن يفقد قواه تماما ، ويعتمد كلية على

يورياه هيب ذلك المخلوق الانتهازى المتسلق ٠٠ تماما مثلما يعهد انسان الى قرد ليرعاه ويتولى شئونه !

وقالت عمتى :

ـ مستر ويكفيلد ٠٠ لقد حدثت ابنتك فيما لحقنى من خسارة وما فقدته من أموال ٠٠ لقد طلبت منهـا المشورة والنصيحة ٠٠ انى أعتقد أن ابنتك آجنس هى افضل عضو فى الشركة ٠

وهنا قال يورياه هيب :

ـ ساكون سعيدا لو أن مس آجنس ستصبح شريكة لنا فى المكتب ٠

فقالت له عمتى بشىء من الخشونة :

ـ لقد أصبحت شريكا فى هذا المكتب ٠٠ وهذا يكفيك ٠٠ كيف تسير معك الأحوال ؟

وأجابها يورياه بأن الأحوال تسير بطريقة حسنة ٠٠ **ثم قال بعد لحظة :**

ـ اذا وجدت انا أو أمى أو مستر ويكفيلد أيـة طريقة لمسـاعدتك ٠٠ فان ذلك سيكون من دواعـى سرورنا ٠

وقال مستر ويكفيلد بصوت منخفض :

ـ ان يورياه هيب نشيط فى عمله ٠٠ وأنا أوافق على مايقول ٠

وقال يورياه هيب :

ـ انى سعيد بهذه الثقة !

وهنا قالت اجنس لأبيها :

ـ ما رايك ياأبى أن تخـرج فى نزهـة معى أنا وتروتوود ٠٠ ؟ !

فقال يورياه هيب :

ـ لدى بعض الأعمال ٠٠ ولذلك فسوف أتـرك مستر ويكفيلد معكم ٠

وخـرج ٠٠

وهكذا أتيح لنا أن نعاود احساسنا بالســعادة وأن نتحدث بحرية عن ذكريــات أيامنا الســعيدة فى كانتربرى ·· وعاد مستر ويكفيلد الى حالته الطبيعية السابقة ··

وبعد أن تناولنا الطعام معا ، جلست أجنس بجوار أبيها ، وصبت له كأسا من النبيذ · وعندما حل الظلام رقد نائما فى هدوء ·· فتسللت آجنس من جانبه واتجهت نحو النافذة ·· وعندئذ رأيت الدموع تملأ عينيها ·

لن أنسى أبدا تلك الصديقة العزيزة ·· لقد ملأت قلبــى بحب الخير ·· ومــلأت عقلى بالأفكــار الطيبة ·· لقد شجعتنى لكى أقوى على ضعفى وانتصر على الصعاب ·· !

حتى عندما حدثتها عن دورا ·· كانت تنصت الى وأنا أثنى على دورا وأعدد محاسنها ·· آه يا آجنس · ياشقيقة الروح منذ أيام الصبا ·· ليتنى عرفت الآن كل ماعرفته فيما بعد ·· ليتنى عرفت ولو لمحة واحدة من ملامح المستقبل !

توجهت فى طريقى الى هاى جيت ·· وأنا أفكر فى حياتى الجديدة التى أتوقعها فى الفترة القادمة ·· وصممت على أن أعرض على الدكتور سترونج رغبتى فى القيام بعملى فترتين كل يوم مقابل أجر مضاعف حتى أتمكــن من مواجهة تكــاليف ونفقات حيــاتى الزوجية ·

وبينما كنت فى طريقى الى بيت الدكتور ·· شاهدت بيتا صغيرا يشبه الكوخ معروضا للبيع · فتوجهت اليه وتفرجت عليه من الداخل والخارج ·· كانت هناك حديقة صغيرة ملحقة به وتصــلح فى نظــرى للكلب جيب ·· واقتنعت أيضا بأن البيت مناسب تماما لحياتى الزوجية ·· مع دورا ··

وصلت أخيرا الى بيت الدكتور سترونج ·· ورأيته واقفا فى الحديقة · وتهلل وجهه بالبشر حين رآنى · وصاح :

– عزيزى كوبرفيلد ·· انى مسرور لرؤيتك ·· ومسرور أكثر لرغبتك فى العمل معى ·· ولكن أليس

من الأفضل أن تفكر فى عمل أحسن من هذا .. اعتقد ان مبلغ السبعين جنيها سنويا مبلغ ضئيل ولا يكفيك ..

فقلت له عارضا فكرتى :

- اعتقد انك ستعطينى المبلغ مضاعفا اذا اشتغلت فترتين يوميا .. فترة فى الصباح وثانية فى المساء .

وبدا واضحا أن الدكتور سترونج كان سعيدا بأن أساعده فى عمل القاموس الكبير الذى يقوم بتأليفه منذ سنوات طويلة .. وكانت جيوبه كلها مملوءة بقطع صغيرة من الأوراق عليها كتابات تخص العمل فى هذا القاموس . واتفقنا على أن نبدأ العمل معا فى الساعة السابعة من صباح اليوم التالى .

وبعد عدة أيام .. تلقيت رسالة من مستر ميكاوبر ، يدعونى فيها لزيارته فى حجرته التى استأجرها فى لندن .. وكتب فى تلك الرسالة : « ستندهش عندما ترى وتسمع ان الأحوال قد تحسنت على نحو أفضل » !

وعندما لبيت هذه الدعوة ، ووصلت الى حيث يعيش

مستر ميكاوبر .. لاحظت أن ولديه كانا راقدين على سرير بأحد أركان الغرفة . كما لاحظت أيضا أنه قد تناول قبل وصولى مشروبا قويا .. وقال بعد فترة :

- سأذهب الى كانتربرى .. لقد سألنى صديقى يورياه هيب أن أعاونه فى عمله .. ان صديقى هيب رجل راجح العقل واسع الأفق .. انه لن يعطينى أجرا كبيرا .. بل سيقوم بسداد كل ديونى !

اندهشت كثيرا لدى سماع هذه الأخبار وأخذت افكر فى معناها وفيما ورائها .. وقالت مسز ميكاوبر :

- انى على يقين من أن ميكاوبر لو شغل عقله فى الأعمال القانونية فسينجح ويتبوأ مكانة عالية .. وربما يصبح قاضيا .. هل تعتقد أن مستر ميكاوبر يستطيع أن يصبح قاضيا .. ؟

فأجبتها :

- ولم لا .. ؟!

٣٣ ـ وأخبرت دورا ٠٠

وبعد مضى مايزيد عن اسبوع من حياتى الجديدة ٠ كنت أعمل مجدا فى فترتى الصباح والمساء ٠٠ رتبت أمرى لزيارة دورا ، التى لم تكن تعلم شيئا حتى الآن عن خسارة عمتى وفقدها لأموالها ٠٠ ولا عن عملى الجديد الذى أقوم به مع الدكتور سترونج ٠

جاءت دورا الى حجرة الاستقبال ٠ وكلبها جيب يجرى ويقفز بجانبها ٠ **وسألتها :**

ـ هل تعتقدين أن بامكانك أن تكونى على علاقة حب مع شحاذ ٠٠ ؟!

ـ ولماذا تسأل مثل هذا السؤال الغبى ٠٠ ؟!

ـ دورا ٠٠ لقد أصبحت شحاذا ٠٠ لقد أفلست ٠!

ـ اذا واصلت الحديث هكذا فسوف أطلب من جيب أن يعضك !

ولكن لأن منظرى كان جادا ، فقد تنبهت دورا ٠٠ ووضعت يدها على كتفى ، وبدأت فى البكاء ٠٠ وعندئذ ركعت على ركبتى وطلبت منها أن تشفق بى ولا تحطم قلبى ٠٠ **وقلت لها مستفسرا عن مصير حبى :**

ـ هل مازلت تحبيننى يادورا ٠٠ ؟ !

فقالت بسرعة :

ـ نعم ٠٠ نعم ٠٠ ولكن أرجوك لا ترهبنى بمثل هذه الاخبار عن فقرك وعن عملك الشاق !

وسألتها :

ـ هل فى استطاعتى ان أقول شيئا ٠٠ ؟!

فاجابت فورا :

ـ لا أرجوك ·· لا تقل شيئا عن ··· ···

ـ اذن ·· مادمت تقبلين الزواج برجل فقير مثلى ، فسوف يكون من الأفضل أن تنظرى الى الحياة بجدية ·· وأن تتعلمى شيئا يمكنك من فحص دفاتر حسابات والدك ·· ان ذلك سيفيدك مستقبلا ·· !

فشرعت فى البكاء مرة أخرى ·· ثم استدعت صديقتها جوليا ميلز ··

وعندما حضرت صديقتها طلبت منها أن تعاون دورا فى قراءة وفهم أى كتاب فى طهى الطعام أو أى دفتر للحسابات ··

ووعدتنى صديقتها بأنها ستحاول ذلك ·· ولكنها لم تفعل كثيرا لتحقيق هذا الطلب ··

٣٤ ـ مستر سبنلو يعرف العلاقة

وذات يوم بينما كنت متوجها الى مكتب مستر سبنلو ، وجدته جالسا يتألم من شدة الحزن ، لدرجة انه لم يرد على تحية الصباح التى القيتها اليه ··

ونظر الى ببرود ، وسألنى أن أصحبه الى حانة مجاورة · وصعدنا معا الى الطابق العلوى بتلك الحانة وادخلنى الى حجرة ، ورأيت مس ماردستون جالسة وكأنها كانت تتوقع حضورنا ··

ـ لو سمحت ·· أرجو أن تعرضى على مستر كوبرفيلد ما تحتفظين به فى حقيبتك !

واخرجت مس ماردستون آخر رسالة كنت قد ارسلتها الى دورا ·· **وقال مستر سبنلو :**

— اعتقد يامستر كوبرفيلد أن هذه الرسالة مكتوبة بخطك ؟

قلت : نعم ·· !

وعندما قدمت اليه مس ماردستون بعض الرسائل الأخرى **قال :**

— واعتقد أن هذه الرسائل الأخرى مكتوبة بخطك

قلت : نعم ·· !

فاشار الى مس ماردستون وقال لها :

— استمرى يامس ماردستون فى حكايتك ··

فقالت :

— لقد بدأت أشك فى وجود علاقة بين مستر كوبرفيلد ومس دورا سبنلو ·· فبدأت أراقبهما فى حذر وعناية ·· وبعد أن تناولنا الشاى بعد عصر يوم

أمس ، لاحظت أن الكلب جيب يلعب بورقة ، فأخذتها منه وقرأتها فتبين لى أنها رسالة ·· وذهبت الى مس دورا سبنلو وطلبت منها أن تعطينى كل الرسائل السابقة ·· وهكذا حصلت على تلك الرسائل التى أريتكما اياها !

فالتفت الى مستر سبنلو **وقال :**

— هل لديك شىء تقوله تفسيرا لذلك ·· ؟

فأجبت :

— ليس لدى ما أقول ·· سوى أن اللوم يقع على أنا وحدى !

— سألقى بكل هذه الرسائل الى نار المدفأة ·· وعليك أن تعطينى جميع الرسائل التى ارسلتها لك ابنتى لألقيها فى النار ··

ولم أوافق بالطبع · **واستمر مستر سبنلو فى غضبه :**

ـ ربما تعرف أنى رجل غنى .. وأن ابنتى هى اقرب اقربائى .. وانا لا أريد أن اغير فى ترتيبات ثروتى .. وساعطيك مهلة لمدة اسبوع واحد تفكر فيه فيما قلته لك !

وقبل أن أعود الى المكتب . فكرت فى أن اتوجه بسرعة الى بيت دورا .. وكتبت رسالة قصيرة الى مستر سبنلو أن يترفق بابنته وان يعاملها بلطف .. وتركت الرسالة على المائدة .

وذهبت الى مس جوليا ميلز ، فوجدت أن لديها فيضا من الكلمات المدهشة كانت تريد أن تصبه فى مسامعى . فتركتها وانا اكثر تعاسة مما كنت عليه من قبل .

وحكيت لعمتى كل ماحدث .. ولكنها لم تعطنى اى أمل .. فنمت على سريرى يائسا يتمزق قلبى من شدة الحزن ..

وفى صباح يوم السبت ذهبت الى المكتب .. فرايت

جمعا من الناس يقفون حول الباب .. وعندما دخلت رايت الكاتب العجوز تيفى جالسا على مقعد غير مقعده ، وقد امسك بقبعته فى يده . وقال عندما رآنى :

ـ حدث شىء فظيع يامستر كوبرفيلد !

ـ ماذا ؟ .. ماذا حدث ؟ !

ـ مستر سبنلو .

ـ ماله .. ؟!

ـ مات .. لقد سقط من عربته

٣٥ – يورياه يقول اكثر من اللازم

ذهبت الى كانتربرى لزيارة مستر ويكفيلد فى مكتبه وبيته ·· وفى الحجرة الصغيرة الملحقة بالمكتب والتى كان يشغلها يورياه هيب من قبل ، رايت مستر ميكاوبر جالسا ·

سالته :

– هاه ·· هل احببت العمل بالقانون يامستر ميكاوبر ·· ؟

اجاب :

– أنا رجل له قدرة كبيرة على التخيل ·· ووجدت أن القانون يتطلب قدرا كبيرا من الحقائق ··

– وهل يعطيك الآن أجرا طيبا ·· ؟

– لقد سدد كل ديونى ·· كلها ·· !

– لم أكن أتوقع انه أصبح حرا فى التصرف فى النقود الى مثل هذه الدرجة ·· هل ترى مستر ويكفيلد كثيرا ·· ؟

– لا ·· ليس كثيرا ·· انه رجل ذو سمعة كبيرة ·· ولكنه لم يعد ذا فائدة !

– اعتقد أن شريكه هو الذى يحاول أن يجعله بلا فائدة ·· !

– ياعزيزى كوبرفيلد ·· انى هنا مجرد موظف موثوق فيه الى حد كبير ·· وهناك بعض الأمور لا استطيع أن أتحدث فيها بحرية ·

لقد تغير مستر ميكاوبر ·· أصبح هناك حاجز

يفصل بيني وبينه .. ولم نعد صديقين مثلما كنا في الماضى ..

كانت آجنس جالسة فى حجرتها . فصحت بها :

- آجنس ياعزيزتى .. انى أشعر بالاحتياج اليك فى الفترة الأخيرة .. كنت أفكر فيك لأنى فى حاجة الى نصيحتك وتشجيعك .. عندما تكونين معى ، اشعر بأن احوالى تتحسن الى الأفضل .. فما هو السر فى ذلك يا آجنس .. ان ثقتى كلها فيك انت وحدك !

فقالت برقة :

- ولكن لايجب ان تضع هذه الثقة فى أنا .. يجب ان تضع ثقتك فى دورا ..

وفي المساء جلسنا لنتناول طعام العشاء .. وشرب مستر ويكفيلد نخب عمتى .. ونخب مستر ديك . ثم وقف يورياه وقال :

- انى اشرب نخب أجمل فتاة على ظهر الأرض !



يورياه هيب وآجنس .

كان مستر ويكفيلد يمسك فى يده كأسا فارغه ، ورفع عينيه الى صورة زوجته السابقة أم آجنس ، ثم وضع يده على رأسه ·· وواصل يورياه كلامه :

— انى أحقر من ان أطلب شرب نخبها ·· ولكنى معجب بها ·· وأحبها !

وأخذ مستر ويكفيلد يعصر يديه فى بعضهما معبرا عن شدة الألم الذى يعتريه ·· وواصل يورياه كلامه :

— أن تكون أبا لآجنس يا ويكفيلد ، فان ذلك شىء يدعو للفخر ·· أما أن تكون زوجها ··· ···

وهنا أطلق مستر ويكفيلد صرخة ألم وتوجع لم أسمع مثلها فى حياتى كلها ·· فصاح به يورياه :

— ماذا فى الأمر ·· هل جننت ؟ !

ووضعت ذراعى حول مستر ويكفيلد محاولا تهدئته ·· ويبدو أن الرجل قد عانى من لحظة جنون عابرة ·· ولكنه أخذ يستعيد هدوءه رويدا رويدا ·· ثم قال فجأة وهو يشير الى يورياه :

— انظر اليه ! ·· بسبب هذا الرجل فقدت اسمى خطوة خطوة ·· وفقدت هدوئى وسلامى ·· وفقدت مكتبى وبيتى ··

فصاح به يورياه :

— لا تكن غبيا هكذا يامستر ويكفيلد ·· لم يحدث شىء فيه أى ضرر ··

وواصل مستر ويكفيلد كلامه :

— ظننت انى استطيع أن أثق به لأن مصلحته كانت تقتضى منه أن يكون صادقا معى ومخلصا لى ·· ولكن انظر كيف أصبح !

فقال يورياه مهددا :

— كوبرفيلد ·· من الأفضل أن تسكته ·· وأن تمنعه من أن يقول اشياء سيندم عليها فيما بعد أشد الندم !

فصرخ مستر ويكفيلد :

- ساقول اى شىء يعجبنى .. لماذا لم يعد فى مقدورى أن اقول ما أريد .. ؟!

ووجه يورياه حديثه الى قائلا :

- كوبرفيلد .. انى احذرك .. اذا لم تمنعه من الاستمرار فى الكلام فلن تكون فى مثل هذه الحالة صديقه الذى يحرص على مصالحه .. انا وانت نعرف مانعرف .. اليس كذلك ؟ .. الا ترى انى مازلت متواضعا .. واذا كنت قد قلت شيئا اكثر من اللازم ، فانا آسف لذلك .

وقال مستر ويكفيلد فى صوت باك :

- اوه .. تروتوود .. تروتوود .. تذكر كيف انحدر حالى منذ أن رايتنى أول مرة فى بيتى هذا .. لقد هدنى الضعف .. واصبحت لا أستطيع التذكر .. وتحول حزنى الى مرض .. لقد أحببت ابنتى لانى كنت اتذكر فيها وجه أمها .. وأصبحت الآن ضعيفا حتى فى حزنى وحبى .. بل ضعيفا حتى فى طريقة

هروبى من الجوانب المظلمة فى هذا الحزن وهذا الحب .. أنظر كيف تهدمت واصبحت حطاما .. !

والقى بنفسه على كرسيه وانفجر باكيا ..

كان الظلام قد انسدل حين أوقفت عربة أمام الباب وهممت بركوبها . ولكن يورياه هيب جاء مسرعا ووقف بجانب العربة وقال بصوت منخفض يبدو مثل صوت الضفدعة :

- كوبرفيلد .. اعتقد انه سيسرك أن تسمع اننا قد سوينا أمورنا .. لقد ذهبت اليه فى غرفته ولم تعد بيننى وبينه الآن اية مشاكل .. وربما انت نفسك قد تعرضت فى مرة لما تعرضت انا له .. أعنى أن تقطف من الشجرة تفاحة لم تنضج بعد .. ولكن الوقت سياتى حتما .. وانا استطيع أن انتظر .. !

٣٦ ـ دورا ٠٠ وكتاب الطهى

وكنت أتردد كثيرا على دورا ٠٠ ولكن كان هناك شيء يقلقنى باستمرار٠٠وهو أن دورا تحب أن يعاملها الجميع كمالوكانت لعبةجميلة٠٠كانت عمتى مثلا تسميها « الزهرة الصغيرة » ٠٠ وكانت عمتها مس لافينيا تدللها أكثر وأكثر ٠٠ وصممت على مناقشة هذا الموضـوع مع دورا ٠٠ **فقلت لها :**

ـ اعتقد أن من الأفضل أن تطلبى منهم أن يغيروا طريقة معاملتهم هذه ٠٠ لأنك تدركين ياعزيزتى انك لست طفلة صغيرة تحتاج لكل هذا القدر من التدليل والدلع ٠٠

فقالت :

ـ انظر ٠٠ ها أنت ذا تريد أن تغضبنى وتغضب منى ٠٠ انهم يعاملوننى بمنتهـى اللطف والعطف ٠٠ وأنا سعيدة بهذه المعاملة ٠

قلت محاولا اقناعها :

ـ ولكن يمكنك أن تظلى سعيدة عندما يعاملونك بطريقة أكثر جدية وواقعية ٠٠

فقالت برقة شديدة :

ـ لا تقسو على هكذا ٠٠ ياعزيزى !

وطلبت منى أن أحضر لها كتابا يعلمها فن طهى الطعام ٠٠ فسررت كثيرا بهذا الطلب ٠٠ واحضرت لها الكتاب المطلوب ، وكتابا آخر لتعليم الحساب ٠

ولكن كتاب الطهى سبب لها صداعا ٠٠ أما كتاب الحساب فقد جعلها تبكى ٠٠ وصممت على أن أقـوم بتعليمها بنفسى ٠٠

قلت لها :

ـ والآن ٠٠ افترضى ياعزيزتى اننا قد تزوجنا ٠٠

وانك ذهبت الى الجزار لتشترى لى قطعة من اللحم ، فهل تعرفين كيف تشترينها ٠٠ ؟

فقالت :

ـ ولماذا أعرف كيف اشتريها مادام الجزار يعرف كيف يبيعها ٠٠ ؟!

ـ اذن ٠٠ لنفرض مثلا أنى طلبت منك أن تطهى لنا طبقا من « اليخنى الايرلندى »(١) ٠٠ فماذا تفعلين ٠٠ ؟!

فقالت على الفور :

ـ أنادى على الخادمة ، وأطلب منها أن تعد لنا هذا الطبق ٠٠ !

وهكذا لم يعد كتاب الطهى ذا نفع ٠٠ ووضعته فى أحد الأركان الجانبية بالحجرة ، ليقف أو ليجلس عليه كلبها المدلل ٠٠

---

(١) طبخة ايرلندية شهيرة وسهلة ، تتكون من بعض قطع اللحم الصغيرة تسلق ببطء مع بعض الخضراوات .

٣٧ ـ الزوجة الطفلة

تزوجنا ٠٠

وعاشت معنا فى البيت خادمة تسمى مارى آن ٠٠ **وقلت لدورا ذات يوم :**

ـ عزيزتى ٠٠ يبدو أن مارى آن ليس لديها أية فكرة عن الوقت ٠٠ فالطعام يجب أن يقدم فى الساعة الرابعة ٠٠ ونحن الآن فى الساعة الخامسة

فقالت ببساطة :

ـ ربما تكون الساعة هى المخطئة فى تحديد

الوقت ·· وأنا لا أجسر على الكلام معها فى مثل ذلك ·· انى أخاف منها ··

فقلت بعد أن فاض بى وانا أحاول فى نفس الوقت أن أمسك بأعصابى :

ـ بالأمس اضطررت الى الخروج قبل أن يتم طهى لعام ·· وأول أمس لم يكن اللحم مطبوخا بطريقة سليمة ·· أما اليوم فليس هناك طعام على الاطلاق ·· انـــى لا ألومك فى ذلك ·· ولكن الحيـــاة بمثل هذه الطريقة غير مريحة !

فقالت بطريقة هى خليط من الغضب والدلع :

ـ انت ولد قاس ·· هل تريد ان تقول انى زوجة سيئة ؟ !

أما المشكلة الحقيقية الكبرى فكـــانت تتمثل فى الخادمات اللاتى أصبحنا نستخدمهن فى البيت واحـــدة وراء أخرى ·· فبعد أن تركتنا مارى أن لاحظت أن بعض الملاعق وبعض النقود قد اختفت · ثم استخدمنا

بعدها مسز كيدجربرى التى كانت عجوزا لاتقوى على اداء اى عمل ·· ثم خادمة اخـــرى كانت تحطم كل شىء ·· ثم عددا من الخادمات اللاتى لايعرفن شيئا عن واجباتهن ·· واخيرا استخدمنا فتاة شابة أخذت قبعة دورا وارتدتها حين ذهبت لمقابلة صديقها !

لقد اصبح الجميع يخدعوننا بســـهولة ·· حتى أصحاب المتاجر اصبحوا لايعطوننا الا اسوأ بضائعهم · فجميع مااشتريناه من أسماك كانت فاســـدة ·· واذا اشـــترينا لحما فانه لايؤكل بعد طهيه ·· حتى الخبز الذى كنا نشتريه اما أن يكون فاسدا أو مبلولا ·· وحتى النساء اللاتى كنا نحضرهن لغسل ملابسنا كن يبمن هذه الملابس بعد غسلها ·· وكانت الخادمات تشـــترين بعض حاجياتهن ويطلبن منـــا أن نـدفع ثمنهـــا ·· وجاء ضيف صديق ليزورنا فقدمنا اليه طعاما لا يؤكل !

وبعد انصراف الضيف ·· **جاءت دورا وجلست بجانبى وقالت :**

ـ انى آســـفة ياعزيزى لـــا حدث ·· كان من

الافضل قبل ان اتزوج بك ، ان اعيش مع أجنس لمدة عام كامل حتى اتعلم منها كل شىء ‥ هل تحب أن تطلق على اسما افضل أن تدعونى به ‥ ؟ !

سالتها :

ـ ماهو ‥ ؟

ـ ادعونى « الزوجة الطفلة » ‥ فكلما نويت أن تغضب منى ‥ فقل فى نفسك : انها مجرد زوجة طفلة !

٣٨ ـ محاولة التاثير على عقل دورا

مر الآن نحو عام ونصف عام على زواجنا ٠ وبعد عديد من المحاولات توقفنا تماما عن ادارة المنزل ‥ لقد اصبح المنزل يدير نفسه بنفسه ‥ واصبح لدينا الآن خادم وطباخة ‥ ويبدو ان هذا الخادم لم يكن لديه شىء يشغله سوى المشاجرة مع الطباخة طول الوقت ٠

وسرق الخادم ساعة دورا الذهبية وباعها ‥ فقبض عليه ووضع فى السجن ‥ وامام القاضى اعترف بالأشياء الأخرى التى سرقها منا ‥ كما اعترف ايضا

بالأشياء التى سرقتها الطباخة ·· وشعرت بالخجل من نفسى بعد اكتشافى أنى سُرقت من جانب هؤلاء الذين كنت أدفع لهم أجرهم كاملا ··

وشجعتنى جميع هذه الحوادث على أن افاتح دورا فى هذا الموضوع بطريقة جادة وحازمة · **فقلت لها فى احدى الأمسيات :**

– ياحبيى ·· يبدو أن النقص فى قدرتنا على ادارة المنزل لايتسبب فى الحاق الضرر بنا وحدنا ·· بل انه يلحق الضرر بالآخرين أيضا ·· يبدو اننا أصبحنا نشجع الناس على أن يصبحوا لصوصا ·· لقد أصبحت أشعر بأن هؤلاء الناس يفعلون مثل هذه الأشياء السيئة لأننا لسنا حازمين معهم بشكل كاف ··· ···

فصاحت دورا قائلة :

– اوه ·· أوه ·· ماهذا الذى تقول ·· هل رأيتنى فى مرة وأنا اسرق ساعات ذهبية ·· ؟ !

وانخرطت فى البكاء · **فقلت لها :**

– دورا ياحبى ·· أرجوك أن تنصتى لما أقول ·· يجب علينا أن نتعلم كيفية التعامل مع هؤلاء الناس الذين نستخدمهم ·· انى أخشى ان أقول أننا نحن الذين نعطيهم الفرصة ليفعلوا مثل هذه الاشياء السيئة ·· انى قلق من أجل ذلك ··

فواصلت بكاءها وهى تقول فى نفس الوقت :

– اذا كنت لا تشعر بالسعادة فلماذا تزوجتنى اذن ·· لماذا لاترسلنى لأعيش مع عمتى فى بوتنى ·· أو لأعيش مع صديقتى جوليا ميلز فى الهند ·· ؟!

واصبح الكلام معها بلا فائدة ··

ومع ذلك فلم أفقد الأمل ·· وصممت على أن أقوم بنفسى بتطويع عقل دورا ليصبح أكثر جدية ·· وبدأت هذه المحاولة على الفور ··

قرأت لها بعض أعمال شيكسبير ·· وقرأت لها بعض نصوص المعرفة المفيدة ·· ولكنها بدأت تخذمن

فى أنى انما أفعل ذلك بقصد التأثير على عقلها ، فبدأت تخشى مثل هذه الموضوعات ·· وازدادت كراهيتها لشيكسبير !

وقضيت فى مثل هذه المحاولات عدة شهور ·· ولكن يبدو أن تطويع عقل دورا لم يحقق أى قدر من النجاح ·· ومع ذلك فقد تخيلت انى قد حققت بعض النجاح فى ذلك ، فاشتريت لها حلية ثمينة على شكل حلق لأذنيها وقلت لها وانا اقدم هديتى :

– انى أخشى اننا لم نكن متجاوبين مع بعضنا طوال الأشهر الماضية ·· وأخشى أننا لم نقضى سويا أوقاتا طيبة ·· والحقيقة يادورا ·· انى كنت احاول أن أكون حكيما ··

فقالت :

– وكنت تحاول فى الوقت نفسه ان تجعلنى حكيمة أليس كذلك ؟ !

فأومأت برأسى · وقالت ببساطة :

– لا فائدة فى ذلك ·· وعليك ان تطلق على الاسم الذى احبه : الزوجة الطفلة !

وهكذا أصبحت على يقين من أننا غير متوائمين عقلا أو أهدافا ·· وبدلا من محاولاتى فى أن أجعل دورا تناسبنى ·· بدأت محاولاتى فى أن أجعل نفسى مناسبا لدورا ·· ولهذا فقد بدأت أشعر ببعض السعادة ·

وما أن انقضى العام الثانى على زواجنا ، بدأت ألاحظ أن دورا أصبحت معتلة من الناحية الصحية ·· وكنت آمل فى أن نرزق بطفل ربما سيجعلها تنظر الى الحياة نظرة أكثر جدية ·

ولكن هذا الأمل لم يتحقق وازدادت صحتها سوءا ·· وكنت قد اعتدت فى الأيام الاخيرة أن أحمل دورا على ذراعى وانزل بها الى الطابق السفلى كل صباح ·· ثم أحملها مرة اخرى وأصعد بها الى الطابق العلوى كل مساء ·· ولاحظت انها كانت تزداد خفة فى الوزن يوما بعد يوم ·

وكانت عمتى تقول لها كل ليلة :

ـ تصبحى على خير ·· ايتها الزهرة الصغيرة !

ولكن مرض الزهرة الصغيرة أخذ يشتد اسبوعا وراء اسبوع ·· حتى كلبها جيب أصبح يبدو مثل كلب عجوز محطم ··

رقدت دورا على السرير ·· جميلة كما كانت تبدو دائما ·· وعلت وجهها ابتسامة رائعة طيبة ·· ولم تصدر منها أية شكوى ·· ولم تطلب منا أى طلب ·· وقالت لنا انها مرتاحة لأننا كنا جميعا طيبين معها ··

جلست بجوار سريرها فى الضوء الخافت ·· وكان وجه زوجتى الطفلة متجها نحوى ·· وكانت اصابعها ترقد ساكنة فى يدى ·· وماتت !!

الجزء السادس

التسوية ··

٣٩ ـ مستر ميكاوبر يعترف

استلمت رسالة غريبة من مســــتر ميكاوبر يقول فيها :

« انتهى ســلامى ·· وتحطمت قدرتى على المتعــة والسرور ·· وذبلت الزهرة ! » ·

قرأت الرسالة عدة مرات محاولا فهمها · ولكنى لم إفهم منها شيئا ، برغم يقينى أنهـــا أكثر اهمية من جميع الرسائل التى ارسلها لى مســـتر ميكاوبر من قبل ·



هل احببت الأعمال القانونية يا مستر ميكاوبر ؟

وبعد عدة دقائق استلمت رسالة اخرى من مسز ميكاوبر تقول فيها :

« لم يعد مستر ميكاوبر كما كان من قبل ‥ انه يقول انه قد باع نفسه للشيطان ‥ ويقول انه يريد الانفصال عنى ‥ اعتقد ان هناك سرا وراء هذا السلوك الغريب ‥ أرجوك أن تلقاه وتتحدث معه ! » ٠

وعلى الفور أرسلت رسالة الى مسز ميكاوبر لأطمئنها ، كما رتبت موعدا للقاء مستر ميكاوبر فى بيت عمتى ‥

وعندما وصل لاحظت انه فى حالة معنوية سيئة ٠ فقلت له مواسيا :

ـ أرجو ألا تكون قد بدأت تكره الأعمال القانونية ٠

فلم يجب بشىء وظل صامتا ٠ فسألته :

ـ كيف حال صديقنا يورياه هيب ‥ ؟

فأجاب :

ـ ان كنت تسأل عنه باعتباره صديقا لك فأنا آسف

لذلك ٠٠ أما اذا كنت تسأل عنه باعتباره صديقى فهذا شيء مضحك ٠٠ انى لا أريد ان أتحدث عن هذا الرجل ٠ ان موتى وحده هو الخلاص من كل شيء !

فقالت عمتى :

– أرجو أن تكون زوجتك وابناؤك فى حالة طيبة ٠٠

– انهم جميعا بخير ياسـيدتى ! ٠٠ ولكنى أنا وحـدى – لسـت بخير ٠٠ وأشـعر باليأس ٠٠

فقلت اطمئنه وأحثه على الافاضـة بما صـدره :

– تكلم يامستر ميكاوبر ٠٠ انك الآن مع اصدقاء صادقين ٠٠ ماذا فى الأمر ٠٠ ؟ !

وانفجر مستر ميكاوبر فى الكلام :

– ماذا فى الأمر ؟ ٠٠ ان الشيطان هو الأمر ٠٠ ان الاعمال السيئة الدنيئة هى الامر ٠٠ ان السرقـة والغش والخديعة هى الأمر ٠٠ ان السبب المباشر فى كل هذه الأشياء المنحطة هو يورياه هيب ٠٠ الآن قد

انتهى الصراع من أجل الحياة ٠٠ ولن أعيش مثل هذه الحياة مرة أخرى أريد أن أستعيد حيـاتى الطيبة مع زوجتى ومع أسرتى ٠٠ وقد آليت على نفسى أن أحطم هذا المخلوق المدعو هيب الى قطع صغيرة ٠٠ سأدمره تدميرا ٠٠ وموعدنا فى مثل هذا الوقت من الاسبوع القادم فى الفندق الصغير بكانتربرى ٠٠ اخبر الجميع بذلك ٠٠ سنلتقى هناك كلنا ٠٠ سانصرف الآن ٠٠ والى اللقاء ٠٠ !!

وخرج من البيت وهو يجرى ٠٠ انى لـم أر فى حياتى اضطرابا مثل الاضطراب الذى كان يعانيه هذا الرجل عندمـا كان يلقى على مسـامعنا هذا الكلام الغريب ٠٠

وبعد دقائق قليلة وصلتنى منه رسالة يبدو انـه كتبها فى الحانة المجاورة ٠ **يقول فيها :**

« سـيدى ٠٠

انى اعتذر عما بدر منى من اضطراب شديد ٠٠

ولعلى أكون قد أوضحت تماما أن موعدنا فى الاسبوع القادم فى « حانة السفينة » فى كانتربرى ..

ويلكنز ميكاوبر » .

انقضى اسبوع وحل موعد اللقاء .. فذهبت أنا وعمتى ومستر ديك الى « حانة السفينة » فى كانتربرى .. واستلمنا رسالة كانت فى انتظارنا يقول فيها مستر ميكاوبر :

« انتظرونى فى الساعة التاسعة والنصف من صباح الغد فى مكتب « ويكفيلد وهيب » ..

وذهبنا الى المكتب فى الموعد المحدد .. ووجدنا مستر ميكاوبر جالسا على مكتبه ويكتب .. أو ربما يتظاهر بأنه يكتب شيئا .. فقلت له :

ـ كيف حالك يامستر ميكاوبر .. ؟

فقال بصوت حزين :

ـ مستر كوبرفيلد .. ان مستر ويكفيلد يرقد

مريضا على السرير .. ولكن مس آجنس ويكفيلد مسرورة لرؤية اصدقائها القدامى ..

وفتح بابا يؤدى الى غرفة الاستقبال . وقال بطريقة جادة :

ـ مس تروتوود .. مستر دافيد كوبرفيلد .. مستر ديك ..

ولاحظت على الفور أن زيارتنا المفاجئة هذه قد أدهشت يورياه هيب كثيرا .. ولكنه سرعان ما استعاد قدرته على التظاهر بالتواضع كالمعتاد .. وقال بطريقته المعروفة :

ـ هذا سرور لم أكن اتوقعه اطلاقا .. لقد تغيرت الأحوال فى هذا المكتب يامس تروتوود منذ زيارتك السابقة .. حين كنت مجرد كاتب متواضع ..

وجاءت آجنس .. وكانت تبدو قلقة ومتعبة .. وظل يورياه هيب يتابعها بعينيه وهى ترحب بنا .. ثم نظر الى مستر ميكاوبر وقال له :

ـ لماذا تنتظر هنا ·· هيا اخرج الى مكتبك ·· الا تسمعنى ·· قلت لك اخرج من هنا ··

فقال مستر ميكاوبر :

ـ حاضر !

ولكنه لم يتحرك من مكانه ·· **فقال يورياه بحدة :**

ـ قلت لك اخرج ·· ماذا تريد هنا ؟

فقال مستر ميكاوبر بكل ثبات :

ـ اريد أن اخبرهم بانه اذا كان هناك وغد واحد فى هذا العالم ·· فان اسم هذا الوغد هو يورياه هيب !!

وغاص يورياه فى مقعده كما لو كان قد تلقى ضربة قوية على راسه ·· وشحب لون وجهه · **ولكنه تماسك وقال :**

ـ هى مؤامرة اذن ياكوبرفيلد ·· لقد رتبت أمر هذا اللقاء بعد أن البت على موظف صغير عندى ··

ولكنى احذرك ياكوبرفيلد ·· ان هذا اللقاء سيكون بلا طائل ·· اننا نفهم بعضنا جيدا ·· ونكره بعضنا تماما ·· والآن ·· انصرف ياميكاوبر ·· وسنتحدث فى ذلك فيما بعد ·· !

وفى هذه اللحظة وصل صديقى ترادلز وكان يصطحب معه مسز هيب · **فساله يورياه :**

ـ من أنت ·· ؟

فاجاب تراداز :

ـ انا صديق لمستر ويكفيلد ·· وعندى السلطة لكى اتحدث باسمه !

وهنا تدخلت مسز هيب قائلة :

ـ يورياه !

فاجاب يورياه نداء امه بصوت يخلو من الأدب :

ـ اسكتى !

وفى الحال وقف مستر ميكاوبر ، وامسك فى يده ورقة كبيرة الحجم ، **وبدا يقرا مافيها :**

« جميع اعمال مكتب (ويكفيلد وهيب) يقوم بها هيب ·· وهيب هذا مجرد لص ··· »

اندفع يورياه هيب نحوه مسرعا ، وحاول أن يخطف منه الورقة التى كان يقرأها ·· ولكن مستر ميكاوبر ضربه على يده ·· فسقطت يده الى جانبه كما لو كانت مكسورة ·· وصاح به هيب :

– فليأخذك الشيطان !

فرد عليه مستر ميكاوبر قائلا :

– اذا اقتربت منى مرة اخرى فسوف أكسر عنقك !

وعاود مستر ميكاوبر القراءة :

« كان يدفع لى أجرا ثابتا عبارة عن اثنين وعشرين شلنا كل اسبوع ·· أما بقية الأجر فكان يحدده حسب ما أقوم به من عمل ·· أو بمعنى آخر حسب ما اقوم به من أعمال سيئة خاطئة كان يحتاجها ويأمرنى بأدائها لخدمة أغراضه فى الغش والخداع ·· وكان يقرضنى النقود حتى أصبحت واقعا تماما تحت سيطرته · وقد

وجدت أن جميع الخدمات التى يطلبها هيب منى هى الاستمرار فى خداع مستر ويكفيلد بكل طريقة » ·

وتوقف مستر ميكاوبر عن القراءة لحظة قصيرة ليرى أثر ما قاله على السامعين ·· ثم استمر بعد ذلك فى القراءة :

··· كان يغش مستر ويكفيلد بكل الطرق الممكنة فى نفس الوقت الذى كان يدعى فيه أن مستر ويكفيلد هو صاحب الفضل الأول عليه ويتظاهر بأنه أعز صديق له ·· وأخيرا تغير قلبى واستيقظ ضميرى لأجل خاطر مس ويكفيلد ·· وبدأت أراقب مايفعله هيب بطريقة سرية ·· وعرفت أن هيب كان يحصل على توقيع مستر ويكفيلد على بعض اوراق والمستندات المهمة ، مدعيا أنها أوراق عديمة الأهمية ·· بل لقد جعل مستر ويكفيلد يسحب مبلغ ألف ومائتى جنيه من حسابات بعض العملاء المودعة عنده بعد ان أدعى أنها مصاريف انفقت فى بعض الأغراض ·· وجعل الأمر يبدو كما لو كان مستر ويكفيلد قد سحب هذا المبلغ لنفسه ··

وبهذه الطريقة الشيطانية سيطر تماما على مستر ويكفيلد وجعله طيعا يقبل كل شىء يراه ... » .

وهب يورياه هيب موجها حديثه الى :

– انك لن تستطيع اثبات ذلك ياكوبرفيلد !

واستمر مستر ميكاوبر فى القراءة :

« ... كنت أعيش فى نفس المسكن الذى كان يعيش فيه هيب وتركه .. وهناك عثرت على بقايا دفتر صغير كان قد أحرقه ولكن بقيت منه بعض اجزاء لم تصل اليها النار .. » .

وهنا صاحت مسز هيب مولولة :

– يورياه .. يورياه .. كن متواضعا .. وحاول أن تصل الى تسوية هذا الأمر معهم !

فصاح بها يورياه :

– أمى .. هل يمكنك أن تلزمى الصمت ؟ !

واستمر مستر ميكاوبر فى القراءة :

« ... وعرفت أيضا أن هيب كان فى أحيان كثيرة يقوم بتزوير وتغيير بعض البيانات المدونة فى دفاتر الحسابات .. وعرفت كذلك انه جعل مستر ويكفيلد يوقع على مستند يثبت زورا انه اقترض مبلغا كبيرا من هيب ، فى حين أن مستر ويكفيلد لم يحصل على أى قرض منه .. هذا بالاضافة بأن لدى ورقة تثبت محاولات هيب فى تقليد وتزوير التوقيع الخاص بمستر ويكفيلد » .

قام هيب ، وأخذ مفاتيحه ، وفتح دولابا معينا ، نظر بداخله ، ثم أغلقه ، واتجه نحونا مرة اخرى وهو يشعر بذل وانكسار .. **فقالت امه تستعطفه وتحاول اقناعه :**

– يورياه .. كن متواضعا وقم بتسوية الأمر معهم .. لقد اخبرنى مستر ترادلز بأنه عرف جميع هذه الاشياء ولديه كل المستندات .. ووعدته بأنك ستكون متواضعا وسترد اليهم اموالهم ..

واستمر مستر ميكاوبر فى القراءة :

« ... واستطيع أن أثبت أن هيب قد أجبر مستر

ويكفيلد حتى يصبح شريكا له فى المكتب ·· ووعده بأن يدفع له مبلغا معينا كل عام ·· ثم اخذ يقرض مستر ويكفيلد بعض النقود ·· وهذه النقود هى نقود مستر ويكفيلد بكل تاكيد ·· وبهذه الطريقة وضع مستر ويكفيلد تحت سيطرته ··

وأنا أتعهد بأن أثبت صدق جميع هذه الحقائق ·· وبعد هذا فان على أنا وأسرتى التعيسة أن نختفى من على وجه هذه الأرض التى فشلنا فيها ، ولم نستطع أن نخدم أى هدف مفيد ! » ·

وبعد أن انتهى مستر ميكاوبر من القراءة ، طوى الورقة التى يقرأ منها وأعطاها لعمتى ·

وكانت هناك خزينة حديدية ضخمة قابعة فى ركن الغرفة ، فقام يورياه هيب وفتحها وفوجىء بأنها خالية تماما فصاح :

ـ أين دفاتر الحسابات ·· لابد أن أحد اللصوص قد سرقها ··

فقال مستر ميكاوبر :

ـ لقد اخذتها انا ·· !

وقال ترادلز :

ـ وهى عندى انا ·· !

وفجأة هبت عمتى واقفة ، واتجهت نحو يورياه ، وامسكت بتلابيبه ، وصاحت فى وجهه :

ـ هل تعرف ماذا أريد ؟ ·· أريد نقودى ·· أريد أن تعيد الى أموالى !

ثم التفتت عمتى نحو أجنس وقالت :

ـ أجنس ياعزيزتى ·· عندما خدعت وقيل لى انى فقدت أموالى بسبب يرجع الى مستر ويكفيلد ، فانى لم اقل شيئا ولا نطقت بكلمة ·· ولكن الآن عرفنا أن هذا الشخص هو الذى استولى على اموالى ·· وسوف استردها منه !

وارتمى يورياه على مقعده ، وقال مستسلما :

- وماذا تريدون أن أفعل ٠٠ ؟ !

فقال ترادلز :

- ستوقع على مستند بالتنازل عن كل شيء لى ٠٠ واذا لم توقع على هذا المستند ، فسوف يكون مصيرك الى السجن ٠

وهنا قامت مسز هيب باستعطاف آجنس لكى تساعدهما وأن تكون رحيمة بهما ٠ **فقال يورياه :**

- أماه ٠٠ توقفى عن هذا الضجيج ٠٠ !

ثم التفت الى ترادلز وقال :

- أين هو المستند ؟ ٠٠ سأوقع عليه ٠٠ !!

* * *

اعترفنا جميعا بفضل مستر ميكاوبر وصنيعه الجميل الرائع ٠٠ وكنا شغوفين بأن نوجه الشكر اليه ٠٠ ولذلك فقد ذهبنا معه الى بيته ٠٠ وكان مدخل البيت الذى يطل على الشارع هو نفسه المدخل الى غرفة الجلوس ٠٠

اندفع مستر ميكاوبر الى داخل البيت ، وارتمى بين ذراعى زوجته وهو يحتضنها بقوة **ويصيح :**

- ايما ٠٠ لقد زالت الغمامة ٠٠ وارتاح عقلى وضميرى ٠٠ والآن مرحبا بالجوع ٠٠ ومرحبا بالثياب الرثة والهلاهيل ٠٠ ان ثقتنا فى بعضنا ستستمر الى النهاية !!

وقالت عمتى :

- مستر ميكاوبر ٠٠ انى اتعجب لماذا لاتترك انجلترا وتذهب الى أرض جديدة أخرى ٠٠ الى استراليا مثلا ٠٠ ؟ !

فقال مستر ميكاوبر :

- منذ مدة طويلة وأنا أحلم بذلك (وأنا على يقين من أن مستر ميكاوبر لم يفكر فى مثل هذا الموضوع من قبل) ٠٠ ولكن هناك بعض الصعوبات ٠٠ !

فقالت عمتى :

- النقود ؟ ٠٠ لقد أديت لنا خدمة عظيمة ٠٠ ومن واجبنا أن نتكفل بالنقود المطلوبة ٠٠ !

- انى لا استطيع أن آخذ هذه النقود كهبة .. ولكن يمكنكم أن تقرضونى اياها .. !

- طبعا .. طبعا ..

وهنا تساءلت مسز ميكاوبر :

- فى بلد مثل استراليا .. هل يستطيع رجل له مزايا وقدرات مستر ميكاوبر أن يجد فرصة للنهوض بمستواه ومستوانا .. انى لا اتوقع أن يصبح حاكما لاستراليا .. ولكنى اتساءل هل يجد الفرص التى تناسب مواهبه .. ؟!

فقالت عمتى :

- ليس هناك مكان أفضل من استراليا .. فى توفير فرص النجاح أمام مستر ميكاوبر .. !

وخرجنا .. وخرج مستر ميكاوبر معنا .. وبينما كنا نجتاز ساحة السوق .. لاحظت أن مستر ميكاوبر قد تقمص شخصية مزارع استرالى .. وأخذ يتفحص قطعان الأغنام بعين خبيرة .. !

٤٠ ـ نهاية هيب

ذهبنا انا وعمتى وآجنس الى كانتربرى لنعرف نتائج التصفية التى قام بها ترادلز لأعمال مكتب « ويكفيلد وهيب » . وكانت عمتى تبدو فى حالة غير طيبة .. كانت شاحبة الوجه الذى ظهرت فيه خطوط حزن عميقة .. وكانت تبكى فى بعض الاحيان ، وتحاول أن تخفى دموعها بيدها ..

وعندما اجتمعنا مع ترادلز . قال بجدية :

- لقد تحسنت أحوال مستر ويكفيلد .. وأصبح الآن قادرا على المساعدة .. بل ساعدنا بالفعل فى

ايضاح الكثير من البيانات المدونة بالدفاتر .. وقد انتهينا الآن من وضع كل شىء فى نصابه السليم .. وخلصنا الى كل النتائج .. فبالنسبة الى موقف مستر ويكفيلد فهو غير مدين لأحد .. وتبقت له بضع مئات من الجنيهات يستطيع أن يواصل بها حياته .. أما بالنسبة لمس تروتوود ... ... **فقاطعته عمتى :**

– لو كنت قد خسرت جميع أموالى ، فانى استطيع أن أتحمل ذلك .. واذا حدث العكس فسوف أكون مسرورة باستردادها ..

– لم نجد سوى خمسة ... ...

– خمسة جنيهات .. أم خمسة آلاف .. ؟

فقال ترادلز :

– خمسة آلاف جنيه ..

فقالت عمتى فرحة :

– هى كل النقود اذن ..

ثم التفتت الينا وقالت :

– عندما أبلغت بانى قد خسرت كل اموالى ظننت فى البداية ان مستر ويكفيلد قد استخدمها وخسرها ..ثم خدعنى يورياه هيب وأرسل الى رسالة يقول فيها أن مستر ويكفيلد لص .. وانه هو الذى استولى على أموالى .. فذهبت اليه وزرته ذات صباح .. واحرقت رسالته أمامه .. وقلت له اذا كان بوسعه أن يضع الأمور فى نصابها السليم فليفعل ، والا فعليه أن يلزم الصمت !

وبعد لحظة ، تساءلت عمتى :

– وماذا حصل بالنسبة لهيب ..

– لا أعرف .. فقد اختفى ..

– والآن .. ماذا سنفعل بالنسبة لمستر ميكاوبر .. ؟ !

فقال ترادلز :

– فى الحقيقة ان مستر ميكاوبر يستحق الكثير

من الشكر والثناء .. لقد كان فى وسعه أن يحصل من يورياه هيب على مبلغ كبير من المال مقابل سكوته .. وقد وجدت انه مدين بمبلغ مائة وثلاثة جنيهات وخمسة شلنات ...

فقالت عمتى موجهة حديثها الى آجنس :

ـ آجنس ياعزيزتى .. ماذا سنعطيه ؟ .. هل نعطيه خمسمائة جنيه .. ؟ !

فقال ترادلز :

ـ اعتقد أن من الأفضل أن نشترى له تذاكر السفر الى استراليا بالاضافة الى مبلغ صغير لتغطية نفقاته ..

واستدعينا مستر ومسز ميكاوبر الى الحجرة .. وأخبرتهما عمتى بما قررناه ..

وقلت لمستر ميكاوبر :

ـ والآن أريد أن انصحك .. لاتدع أحدا يقرضك نقودا مرة أخرى !

فقال مستر ميكاوبر :

ـ أبدا .. لن أفعل ذلك .. وسوف أكتب هذا القسم على صفحة بيضاء فى حياتى المستقبلة .. وسأجعل ابنى ويلكينز يتذكر دائما أن من الأفضل له أن يضع يده فى النار ، ولا يمدها الى هذه المخلوقات .. هؤلاء الذين يقرضون النقود .. هؤلاء الذين سمموا دم أبيه التعيس .. !

٤١ ـ العاصفة

كنا فى بداية المساء حين ركبت احدى العربات اخذا طريقى الى يارموث . وقلت لسائق العربة وانا اتأمل السماء :

ـ الا تعتقد أن الجو غريب جدا ؟ .. لا أتذكر أنى شاهدت جوا مثل هذا من قبل ..

فقال سائق العربة :

ـ ولا انا يا سيدى .. فهذا الجو ينذر بهبوب عاصفة شديدة .. وبالطبع سيثور البحر ويهيج وستحدث بعض الحوادث .

واشتد تلبد السماء بالغيوم والسحب .. بل واخذت السحب المتطايرة تتراكم فوق بعضها كالجبال الشاهقة .. وكان القمر يبدو أحيانا من بين فرجات السحب وكأنه قد فقد طريقه وتاه واصابه خوف عارم ..

أما الرياح فقد أخذ هبوبها يشتد ويعنف لحظة بعد اخرى .. وكانت تحدث أصواتا غريبة ومخيفة أحاطت بكل شىء ..

وكلما أوغل الليل كلما تكاثفت أطباق الظلام .. وتراكمت جبال السحب وغطت السماء كلها واختفى وجه القمر ..

وحينما اشتد هبوب الرياح أصبحت الخيل لاتقوى على جر العربة .. وكانت تدير رؤوسها لتتجنب صفعات الرياح .. بل وكانت تتوقف فى أحيان كثيرة دون أن تقوى على مواصلة السير .. وأصبحنا نخشى أن تنقلب بنا العربة ..

وبالرغم من بداية ظهور تباشير الصباح ، الا أن

الرياح واصلت هبوبها العنيف وأصبحت اقوى من ذى قبل .. لقد رأيت عواصف كثيرة ولكنى لم أشـــاهد عاصفة مثل هذه ..

وصلنا متأخرين جدا الى ابسويش بعد أن صارعنا الرياح طوال رحلة مرهقة .. ورأينا الناس قد تجمعوا فى ساحة السوق بعد أن غادروا بيوتهم خوفا من سقوط الداخن . وبينما كان سائق العربة يستبدل الخيل بخيل أخرى . سمعت الكثير من أخبار أسقف البيوت التى تطايرت وتحطمت . والأشجار الكبيرة والصغيرة التى اقتلعت وسقطت على الأرض ..

وواصلنا الرحلة وسط هذه العاصفة العنيفة .. والتى كانت تزداد عنفا وتدميرا كلما مر الوقت واقتربنا من ساحل البحر الذى تهب منه كل هذه الرياح الثائرة . وبالرغم من اننا كنا لم نزل بعيدين عن الساحل بمسافة طويلة . الا اننا احسسنا بملح البحر فوق شفاهنا .. وانهمر مطر من الماء المالح فوق رؤوسنا ..

وعندما لاح لنا ساحل البحر أخيرا .. سـمعنا

هدير الأمواج الصاخبة .. وهى تعلو فوق الشاطىء كما لو كانت أبراجا أو بنايات مرتفعة .

ورتبت اقامتى بفندق صغير قديم .. ثم خرجت متجها صوب الشاطىء .. وهناك رأيت نصف سكان المدينة متجمعين .. وكثيرا من النساء كن يبكين بسبب عدم ظهور قوارب الصـيد التى يعمل عليها ازواجهن بداخل البحر .. وكان قدامى البحارة يهزون رؤوسهم فى يأس وهم ينظرون الى كل من البحر والسماء .. وكان ملاك السفن والقوارب ينظرون صوب البحـر وقد عصف بهم الاضطراب والقلق ..

وكاد الحصى والرمال المتطايرة أن يعمى عينى .. وكاد هدير الموج أن يصم أذنى .. وكاد البحر أن يخرج من شاطئه ليبتلع المدينة بمن فيها .. وفجأة أشار أحد الملاحين . ورأيت .. وياللهول مارأيت .. رأيت سفينة تتحطم والأمواج تهاجمها من كل جانب !

كان أحد صوارى السفينة قد تحطم ولكنه مازال متعلقا بجانب السفينة ويتخبط فيها بقوة .. ورأيت

بعض الرجال على ظهر السفينة وهم يحاولون فصل الصارى عن السفينة والقـاءه فى البحر ·· ورأيت بينهم رجلا مجعد الشعر ··

وفجأة سمعت صرخة مدوية أطلقها كل المتجمعين على الشاطىء ·· صرخة غطت على هدير الموج وزئير الرياح ·· لقد طغى البحر على حطام السفينة ، وقذف بالصارى وبكل ماعليها من اشـياء ومن عليهـا من الرجال ·· فى المياه الثائرة بكل عنف ·· والتى كانت تبدو كما لو كانت تفور وتغلى ··

وعندما انزاح الموج عن الحطام ، رأينا السفينة وقد انكسرت فى منتصفها ·· ورأينا اربعة من الرجال مازالوا متعلقين بالصارى الثانى الذى ظل يتأرجح ويعلو ويهبط مع كل موجة ·· ورأيت بين الرجال الأربعة الرجل المجعد الشعر ·

وكان هناك جرس مازال معلقا بالجزء المتبقى من حطام السفينة ·· وكان يدق بعنف واضطراب كلما هبت موجة تقرب الحطام من الشاطىء ، وكلما انزاحت

موجة تبعد الحطام الى داخل البحر ·· كان دق الجرس أشبه بنذير الموت لهؤلاء الرجال التعساء الذين مازالوا يكافحون ويحاولون التمسك بالحياة ·

وهبت موجة عاتية وغطت الحطام كله ·· ثم انزاحت بعد أن أخذت معها اثنين من الرجال الأربعة ·· فصرخ كل المتجمعين على الشاطىء وولولوا ·· وادرات النساء وجوههن وهن يصرخن ويبكين ·· كما أخذ بعض الرجال يجرون ذهابا وجيئة على الشاطىء وهم يصرخون لطلب المساعدة ·· ولكن أية مساعدة تلك التى يمكن أن يقدمها أحد فى مثل هذه الأحوال ؟ !

كان من المستحيل تماما أن يرسل أى قارب للنجدة ·· وكان من الجنون أن يسبح أحد ومعه حبل ليوصله بين الحطام والشاطىء ·· ومع ذلك فقد رأيت بعض الرجال يستعدون لعمل شىء ·· وكان هام فى مقدمتهم ·

رأيت فى وجهه مزيجا من ملامح الحزن وملامح التصميم والعـزم ·· وفهمت انه مقبل على مواجهة

اخطار قد يلقى فيها حتفه ·· لذلك فقد اندفعت اليه واحطته بذراعى لكى أمنعه من الاقدام على تلك المخاطرة ·· وتوسلت الى الرجال المجتمعين حولى وحوله أن يمنعوه من مغادرة الشاطىء ··

ثم ارتفعت صرخة عالية ، فنظرت صوب الحطام ، فرايت جزءا من الشراع قد هوى وسقط فى البحر ، آخذا معه واحدا من الرجلين الباقيين ·· وهكذا لم يصبح على الحطام الآن سوى رجل واحد مازال متشبثا ببقايا الصارى ··

وهنا قال لى هام متوسلا :

ـ مستر دافيد ·· لو كان عمرى قد انتهى فهو قدرى المكتوب ·· ليباركك الله ·· دعنى اذهب !

وأحضروا له حبلا طويلا ، ربط أوله حول خصره ·

وكان الحطام يعلو فوق قمم جبال الموج ، ويهبط بعنف الى وديانها ·· وكان الرجل الباقى عليه مازال متشبثا بالصارى ·· وكان يرتدى كابا احمر غريب

الشكل ظل يلوح به كما لو كان يتوسل الينا لنجدته ·· وقد ذكرنى هذا الكاب الأحمر بصديق قديم كان يرتدى مثله ··

نظر هام الى البحر ·· وعندما انحسرت موجة كبيرة عاتية ، اخذ يجرى وراءها ·· وفى لحظة واحدة أصبح هام يصارع الأمواج ·· يعلو فوق قممها ويهبط مع وديانها ·· ثم قذفته موجة قوية نحو الشاطىء ، فجذبه الرجال نحو الرمال ··

كان من الواضح أنه اصيب ·· ورايت الدماء تغطى وجهه ·· ولكنه لم يهتم بذلك بل وطلب من الرجال أن يرخوا الحبل ليتيحوا له مزيدا من الحرية للتوغل الى داخل البحر حتى يصل الى الحطام لينقذ الرجل ·· ثم قذف نفسه بين أحضان الموج مرة أخرى ··

أخذ يسبح نحو الحطام بكل قواه ·· وكنا نراه يعلو ويهبط مع حركة الموج · وما كاد أن يصل الى موقع الحطام ويمسك به ، حتى رأينا موجه خضراء عالية كالجبل ، جاءت من خلف الحطام وارتفعت

فوقه ٠٠ وفى لمح البصر غاص الحطام فى اعمـــاق البحر ٠

تكاتف الرجال واخذو يســـحبون الحبل ٠٠ وفى لحظات وصل هام مسحوبا الى الشاطىء ٠٠ وكان جثة هامدة ٠٠ لقد لطمته الموجة الخضراء بضربة قاتلة أطاحت بحياتهوبكل الشجاعة التى كانت تملأ قلبه ٠ وحملناه الى منزل قريب وبقيت الى جواره ، وعقلى مفعم بكل الذكريات التى عرفتها عن هذا الرجل الطيب الشجاع ٠

وبينما كنت جالســـا بجوار ســـرير هذا الفقيد العزيز ، سمعت طرقا على الباب ، ودخل احد الصيادين يناديني باسمى :

ـ مستر كوبر فيلد ٠٠ هل يمكن أن تحضر معى ؟٠

واحسست أن مصيبة أخرى قد وقعت واستندت الى ذراع الرجل وسألته بصوت ضعيف وحزين :

ـ هل لفظ البحر جثة أخرى ٠٠ ؟

ـ نعم ياسيدى ٠٠

ـ وهل هى لشخص أعرفه ٠٠ ؟

ولم يجب الرجـــل بكلمة ٠٠ وقادنى متأنيا نحو الشاطىء حتى وصلنا الى نفس المكان الذى كنا ـ انا واميلى ـ نجمع فيه القواقع ٠٠ وهناك بين اطـــلال البيت القديم الذى أساء الى أهله ، رأيته ممددا على الأرض ، ورأسه مسنودة على ذراعه ٠٠ تماما مثلما كان يفعل أيام المدرســـة ٠٠ كانت الجثة لصـــديقى القديم ٠٠ ستيرفورث !!

وطافت بخاطرى ذكرى آخر لقاء معه ٠٠ وتذكرت بوضوح آخر كلماته : « اذا فرقت بيننا الظروف ٠٠ فارجو أن تذكر حسناتى ! » ٠

وهذا ماسوف أحافظ عليه الى الأبد ٠٠ !

٤٢ ـ ابلاغ الخبر الى مسز ستيرفورث

وصلت قرب الظهر الى هاى جيت · وفتحت لى خادمة صغيرة باب البيت · سألتها :

ـ انى احمل اخبارا سيئة الى مسز ستيرفورث ·· هل هى موجودة الآن ·· ؟

فى هذه اللحظة كانت الأم موجودة فى غرفة ابنها ·· وبجانبها كانت تقف روزا دارتل · وتساءلت الأم فى قلق :

ـ هل هو مريض ؟ ·· هل رأيته ؟ ·· هل عدتما اصدقاء كما كنتما من قبل ·· ؟!

فهمست بصوت حزين :

ـ لقد مات !!

فصاحت الأم :

ـ روزا ·· الحقينى !

فلحقتها روزا على الفور ·· ولكن بدون شفقة ولا رحمة ·· وكانت عيناها تتوهجان بشرر كالنار ، وصرخت فيها قائلة :

ـ والآن ·· هل ارتحت ·· هل ارضيت غرورك وفخرك بابنك ·· ايتها المرأة المجنونة ·· ؟!

ارتمت مسز ستيرفورث على مقعدها تحملق فيها بعينين مفتوحتين عن آخرهما ·· وواصلت مس دارتل صراخها الملتاع ، وهى تدق بيديها على صدرها ، وتشير الى ندبة الجرح الظاهرة فى وجهها :

ـ انظرى ماذا فعله ابنك فى وجهى ·· ثم نوحى بعد ذلك وولولى ·· ايتها الأم الفخورة بولدها

الشرير !··انت التى دفعته الى طريق الشر والضياع·· كنت احبه اكثر منك ·· احبه دون مقابل ودون أمل أو رجاء ·· واحبنى هو عندما كان بريئا وصادقا مع نفسه ·· وبعد ذلك اصبحت مجرد العوبة يلهو بها كلما وجد ساعة فراغ يريد أن يقضيها فى اللذة والمتعة ·· كان يسحبنى الى هنا او الى الطابق العلوى ويلهو بى وفق هواه ·· لقد اصبحت بالنسبة لكما انتما الاثنين مجرد شىء مكسور لافائدة فيه وعديم القيمة !!

قلت استعطفها وأحاول أن أهدىء روعها :

ـ مس دارتل ·· ارجو أن تقدرى شعور وأحزان أم فقدت ابنها الوحيد ·· !

فصرخت قائلة :

ـ ومن ذا الذى يقدر شعورى واحزانى ؟ !

ـ ولكن فى مثل هذه اللحظة يجب ان تنسى كل الاساءات ·· يجب ان تمدى يدك لمعاونة الأم الثكلى فى تحمل أحزانها ·· !

ولكن مسز ستيرفورث كانت جالسة على مقعدها دون حركة ·· كانت جامدة كتمثال نحت من الحجر ·· وبدأت مس روزا دارتل تفك بعض الازرار وتخفف أربطة ملابس الأم لتساعدها على التنفس ·· والتفتت الى وصرخت فى وجهى :

ـ عليك اللعنة ·· كانت ساعة شر سوداء حين جئتنا فى هذا البيت ·· عليك اللعنة ·· هيا اخرج من هنا ·· !!

واخذت مسز ستيرفورث بين ذراعيها ·· تقبلها تارة ، وتناديها باسمها تارة أخرى ·· وتحاول بكل طريقة أن تفيقها من غشيتها ·· أو تعيد اليها أنفاس الحياة ··

٤٣ ـ وأقلعت السفينة

ذهبت انا وبيجوتى ـ مربيتى العجوز المخلصة ـ الى جريفسند لتوديع عائلة ميكاوبر المهاجرة الى استراليا ·· وكان مستر بيجوتى قد انتوى الهجرة أيضا واستعد للرحيل على نفس السفينة ·

وعندما وصلنا الى الرصيف ، رايت ابناء مستر ميكاوبر وهم يتعلقون بذراعى اجنس حتى آخر لحظة ·· واخذنا قاربا صغيرا اتجهنا به صوب السفينة التى كانت تقف بعيدة عن الرصيف ··

واستقبلنا مستر بيجوتى الذى كان يقف على سطح السفينة بجوار السور ·· وقال لنا أن مستر ميكاوبر قد قبض عليه منذ لحظة للوفاء بدين لأحد الدائنين ·· ولكنه استطاع أن يدفع مبلغ الدين فاطلق سراحه ·

وفى مكان منزو قريب على سطح السفينة لمحت اميلى جالسة مع ابناء مستر ميكاوبر ·· ورأيت آجنس تحييها وتودعها بقبلة ! ·· كما رأيت مسز جاميدج وهى ترتب حاجيات مستر بيجوتى بمعاونة بعض الشابات الصغيرات ·

ونودى على كل المودعين والزوار بأن يغادروا السفينة بعد أن حل وقت الرحيل ·· وقمت بتوديع المهاجرين الوداع الأخير ·· وكانت بيجوتى تبكى وهى متعلقة بذراعى ··

ونزلنا الى القارب الذى عاد بنا الى الرصيف ··

وكانت أشعة الشمس الغاربة تنعكس فى جمال رائع فوق صفحة المياه الهادئة ··

وساد الصمت لحظة ·· ثم فردت السفينة قلوعها واشرعتها فى مواجهة الريح ·· وبدأت تتحرك ببطء صوب البحر الواسع العريض ·

٤٤ ـ الفصل الأخير

سافرت بعد ذلك فى رحلة طويلة زرت فيها ايطاليا وفرنسا وسويسرا ·· ثم عدت الى الوطن ··

توجهت فورا الى بيت عمتى فى دوفر حيث استقبلتنى هى ومستر ديك وبيجوتى التى اصبحت الآن مديرة للمنزل ·· استقبلونى جميعا بفرح عظيم والدموع تترقرق فى عيونهم ··

وظللت اتحدث مع عمتى حتى الليل ··وفجأة سألتنى عمتى :

ـ ومتى ستسافر الى كانتربرى ؟

فاجبتها :

ـ سأسافر صباح الغد ٠٠ !

وجلست صامتا مستغرقا فى التفكير العميق وأنا احملق فى نار المدفاة ٠٠ كنت أشعر بالأسف والحزن بسبب مافشلت فى معرفته والاحساس به والتنبه اليه فى أيام صباى الماضية ٠

وخيل الى انى اسمع صوت عمتى وهى تعتب على قائلة :

ـ أوه ياتروت ٠٠ أنت أعمـــى ٠٠ أعمـــى ٠٠ أعمى ٠٠ !

ثم قالت عمتى وكانها تفهم مشـــاعرى وتحس بما يدور فى نفسى وقلبى :

ـ اذهب اليها ٠٠ ستجد اباها وقد خط المشيب شعر رأسه ٠٠ وستجدها جميلة متالقة ٠٠ كريمة غير انانية كما كانت دائما ٠٠ !

فسالت عمتى مترددا :

ـ هل لآجنس ٠٠٠ ٠٠٠

ـ لها ماذا ٠٠ ؟

ـ عاشق يحبها ٠٠ ؟!

فصاحت عمتى :

ـ لها عشـــرون ٠٠ كان فى امكانها أن تتـــزوج عشرين مرة ! !

ـ ولكن هل بينهم عاشق جدير بها ويستحقها ٠٠ وهل هى تحب أحدا بعينه ٠ ؟ !

فقالت عمتى متنهدة :

ـ اعتقد أنها تحب واحدا بعينه ٠٠ هى لم تخبرنى باى شيء عن حبها ٠٠ ولكنى اعتقد ذلك ٠٠ !

وفى الصـــباح الباكر وصلت الى كانتربرى ٠٠ وفتحت لى الباب خادمة جديدة لاتعرفنى ٠ قلت لها :

ـ اخبرى مس ويكفيلد أن ضيفا وصل ويريد أن يراها ٠٠

وبعد قليل فتح باب الحجرة ودخلت أجنس بكل جمالها ووداعة عينيها . واتجهت نحوى وهى تضع يدها على قلبها من وقع المفاجاة . **قلت لها :**

ـ اجنس ياعزيزتى .. أرجـــو ان تكون مفاجاة طيبة لك أن تريني هنا ..

ـ انى فى غاية السرور لرؤيتك ياتروتوود !

وجلسنا جنبا الى جنب .. كانت صادقة كمـــا كانت أبدا .. جميلة .. وطيبة .. وحاولت ان أشكرها على كل ماصنعته فى الماضى من اجلى .. **وقلت لهـــا فى النهاية :**

ـ والآن يا آجنس .. اخبرينى عن نفســـك ..

فقالت بهدوئها المعتاد :

ـ ماذا اخبرك به ؟ .. ان أبى فى حالة طيبة .. وها انت ترانا نعيش فى بيت ملكنا ! .. يبدو انك تفكر فى شىء ما ياتروتوود ..

وقلت لها :



آجنس ودافيـــد .

– أجنس ·· دعينى أقول الآن ما أفكر فيه ·· لقد جئت لأخبرك بأنى علمت انك تحبين شخصا ما ·· وأرجو الا تخفى عنى أى شىء يتعلق بسعادتك القريبة ·· من هو ذلك الشخص ·· اخبرينى باسمه اذا كنت مازلت تثقين بى ···

وفجأة ، هبت آجنس واقفة وهى تخفى وجهها بيديها وانفجرت فى البكاء بدمع غزير فاض من عينيها ·· وكاد قلبى ان يتمزق وانا اسالها فى حيرة ولوعة :

– آجنس ياعزيزتى ·· ماذا فعلت حتى تبكى هذا البكاء كله ·· ؟ !

فقالت وقد ازداد بكاؤها وانهمار الدموع من عينيها :

– أرجوك ياتروتوود ·· دعنى أذهب الآن ·· انى لست فى حالة طيبة ·· وسوف نتحدث عن ذلك فيما بعد ·· !

وأخذتها بين ذراعى وهمست :

– آجنس ياحبى ·· انت أملى ·· وانت خير عون فى حياتى ·· !

وارتاحت آجنس على صدرى ·· قريبة من قلبى ·· ووضعت يدها الرقيقة على كتفى ·· وتلألأت عيناها من وراء الدمع بنظرات حلوة حنون ··

وقلت لها بكل الصدق :

– فى أى مكان كنت اذهب اليه ياآجنس كنت أشعر بدبيب حبك فى قلبى ·· لقد سافرت بعيدا لأنى أحبك ·· وعدت الآن اليك لأنى أحبك أكثر وأكثر ··

وضعت كلتا يديها الرقيقتين على كتفى ·· ونظرت الى بوجهها الهادىء الجميل الرائق · وقالت :

– هناك شىء أريد أن أخبرك به ··

– ماهو ياحبيبتى ؟ ·· اخبرينى !!

– لقد أحببتك طوال حياتى ·· !!